في محراب الروح

في محراب الروح

رواية

جود طروية

تصميم الغلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عودة

رقم الإيداع: 2015/27226

I.S.B.N: 978-977-488-433-7

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 – 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2016م

في محراب الروح

جود طروية

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع



لم يكن يومًا قدومنا إلى هذه الحياة .. بخيار قنوع منا، ولم يصدر عن ذواتنا .. بقدر ما هو تسيير القدر، لم نولد بضحكة عارمة.

ليت الولادة تبدأُ بضحكات تعُم الفضاء، إلا أنها صرخات ألم .. إثر تجرع الهواء،وكأن ذلك الطفل يعلم علم اليقين .. أن خروجه من رحم أمه .. مجرد انطلاقة، بداية لسلسلة من الآلام، والفواجع، أُولى هذي المواجع قادم من المشاعر، تلك الأحاسيس الإنسانية، التي تتقد بداخلنا، البعض أدرك خطرها عليه، فدفنها وجعلها رمادًا، لكنه بذلك..أصبح خطرًا على الآخرين، والبعض الآخر..يحيا بسيطًا بمشاعر مرهفة،هذه المشاعر تتقد مع الرعشة الأُولى للولادة، مع الصرخة الأولى، التي تجعل أُولئك الذين ينتظرون خلف الأب على يقين أن المولود قد أتى، أَشكُّ..أن صرخاته استنجاد،لا يريد الخروج،

فالهواء ملوث، الخبث يعم المكان، لا يوجد طفل وُلد بلا صيحات الاستنجاد تلك، منطقيًّا هذا ضروري لـــيكون بصحة جيدة، ونسبة لـــتغير الجو المحيط .

ولكن ..

ماذا إن وُلد بدون الصرخات، ولا الضحكات؟!

وُلِدَ بلا صوت..فقط صدى مُعدّات الطبيب تأخذ مكانها على المنصة،

بلا صوت.. تموت الأَحداث، وتصفر الوجوه ..

طفل بلا صراخ ... طفل بلا حياة !

علامات الدهشة تعتري الوجوه، حتى الطبيب لم يخفِ علامات الذهول، طفل بلا صراخ .. بلا نحيب، بلا صوت!

لكنه على قيد الحياة.

رئتاه، شهيق.. زفير.

دقات قلبه تك تك تك .

يبدو طبيعيًّا ..

يصفعه صفعات خفيفة على مؤخرته، لا صوت ...!!!

هل هو أخرس؟ هل وُلِد! بلا حبال صوتية.

ألف سؤال دار في ذهن الطبيب وهو يسلّم الطفل إلى الممرضة، التي لم تستطع أن تخفي تلك النظرات المتسائلة المكللة بالتشاؤم، لا أحد يدري !!

إختلفت الأسباب..

المنطق يتسرب خارج جدران الغرفة، كل شيء ينافي المنطق المدروس، والمحسوس أو الملموس.

إن الغرفة الآن تعج باللا منطق تحت تأثير المخدر تُجرُّ إلى غرفتها،

هناك حيث تفتح عينيها .. للمرة الأولى،وكأنما هي طفلة مفزوعة

تنظر لذلك الذي يحوط يدها يقبلها ويلمع، يتلألأ بفرح ..

الأب: مبارك .. أصبحتِ أمًّا .. وأصبحت أبًا .. مبارك لنا .

الأم: أين هو؟

الأب: في الحاضنة.

الأم: لم أسمع صرخاته .. أهو بخير؟

الأب: لم يصرخ.

الأم: كلهم يصرخون.

الأب: لكنه لم يصرخ.

الأسباب..مجموعة من اختلاط المفاهيم المبهمة، عبث منطقي ومنطق ينافي العبث، شرود الفكرة صعب للغاية، كيف لطفل أن يُخلق طبيعيًّا بلا صرخات؟!

- لا داعي لاصفرار الوجه والعبوس إنه بخير.

- أوحقًّا؟

- هل يُعقل؟

تهرول بخطًا مسرعةٍ، تكاد تكسر الأدراج ... بقلق ورهبة متناسية أن عليها الراحة، فعمليات الولادة ليست بتلك السهولة، المشفى مغلف بالسكون، لكنها تمزق الغلاف بنظرات الحيرة، ونبرات الاستفهام.

- الأم: أين هو؟ أين؟

- إنه في مكان ما من الواقع، لربما في السماء، لربما بين الموت والفناء، أو لربما يحيا طبيعيًّا هناك ..

الأب: إنه في الحاضنة.

الأم: دعني أره.

الأب: إنهم يجرون بعض الفحوص .

الأم: هل هو بخير؟

الأب: يقولون إنه بكامل صحته.

الأم: إذًا هو ليس فأر تجارهم.

الأب: ما بالك؟ عزيزتي.

إنها تبكي.. تشعر بالألم المقيت، بعد أن هدأت أحست به ذلك الألم.. تنحني.. إن جراح العملية تؤلمها، بديهي! عقب ركضها هذا !

فلترتاحي ...

يجلسان على الكرسي وما هي إلا دقائق من أخذ أنفاسها.. يحملها.. ويتسلق عتبة الأدراج إلى الأعلى .

انتهت تلك الفحوصات.. والطفل سليم !

يأخذانه إلى المترل؛ ذات الاستكانة، تنظر الأم.. بعيني الأم لللطفل الصغير.

- حبيبي .. وأخيرًا أنت بين ذراعي!

رمقها بعينيه وكأنه يخبرها..لا حاجة لهذه النظرات الطفولية الغريبة، لماذا نقوم بتلك الحركات المجنونة؟! لربما الأطفال يشعرون بسخفنا، فيضحكون عبثًا على أشكال الوجوه الغريبة، على الحماقة، تخيل لو أنك تقرأُ لطفلك كتاب تاريخٍ قبل النوم عوضًا عن قصة - ليلى والذئب - تسمعه عوضًا عن الأَغاني الساقطة والطفولية سوناتا القمر لـــ بتهوفن! أو أغنية أُوبرا مرموقة! تراتيل قرآنية مثلًا! لكي ينمو على العقل المنفتح عوضًا عن برامج أطفال لا هدف لها،

انتقِ برامجه، دعه يعتد العيش ورؤية الأرقام منذ الصغر، دندن بأذنه، 1+1 = 5 .

علّمه أن ينافي المنطق، ويربط روابط الفلسفة، عوضًا عن إلقاء الشتائم!

يحق لهم أن يرمقونا بتلك النظرات نظرات البلاهة..

ويحول عن عينيها لينظر من النافذة حينها رأى السماء، بلا وعي.. ولا إرادة، اتسعت حدقتا ذلك الطفل، وكأنما دارت في باله فكرة: كم هو صغير في هذا العالم!

بريق عينيه، ارتسمت ابتسامة على شفتيه، وكأنه وجد هدفًا كبداية أن يكتشف العالَم، وتلك الطيور التي تعطي للسماء بريقًا خاصًّا، دائمًا الأهل يدخلون في سياق الأفكار ويبعثروها، أو يظنون أهم فعلوا، يحكمون على الأطفال بعدم الوعي، ها هو ابن اليوم .. تغير والدته وضعيته، لتجعله بعيدًا عن سمائه التي أحب، تصل الأرواح الصغيرة إلى المترل، لتستقل في مكانٍ ما.

الأب: هل اخترت الاسم المناسب؟

الأم: لا أدري .. الأهم لا أريده تاريخيًّا.

الأب: هدوءه رائع.

الأم: أجل الهدوء محمود.

تنجذب نظرات كليهما ..

محمود... ويا له من اسم .

الأم: أجل أعجبني، لنسمِّه محمود

منذ المرة الأُولى التي تسمع فيها اسمك، تتعود على وقع رنته الموسيقية، ولكن لم قُدِّرَ لنا ألا نختار أسماءنا؟!

نظر محمود الصغير إلى سقف الغرفة .. يحاول أن يجد تفسيرًا، لِمَ.. قُدر لنا ألا نختار أسماءنا؟!

لربما أردتُ أن أكون دان.. أَو سعد، أو يكون اسمي عزيزي! هذه الأسماء التي ألفتها أذنه، لا بد أنها جالت في عقله،

الأب: بيني .. انظري إليه .

الأم: إنه رائع عزيزي.

نظرات الصغير دلت على الاستغراب...فأُمه تنادي والده عزيزي طيلة الوقت، رغم أن اسمه عادل.. حتى محمود لا يعرف هذه المعلومة، فهي لم تمر على مسامع ابن اليوم بعد ولكنه سمع من والده أن أمه تدعي بانة .. فمن بيني إذاً؟!

بديهي أن تخطر في أذهاننا أسئلة كهذه، لربما بيني زوجة أبيه الشريرة التي تريد قتله لأنه ذو جمال خارق!

هذه الألقاب والأسماء التي ننسبها للبعض على أنها تدليل وترقيق أين هي من الواقع؟

هذا ما يحدث..عندما لا يحق للشخص أن يختار اسمه، يبدأ بالبحث عن اللقب المناسب.. أو الاسم المناسب ليكون هو!

وكأن الأسماء تحدد شخصيتنا وميولنا، أو أنها تربطنا بشيء ما...

الأسماء واهية..لا دخل لها بالواقع .. مجرد بطاقات تعريف بسيطة،

بدلًا من أن أنادي.. البشري رقم 1، البشري رقم 2 ،وهناك نوع أيضًا يرقمون تحت مسمى الحمار البشري رقم 1 وهكذا، إنه يعتاد على وقع الاسم:3، وأمه ترقص برأسها أمامه.. وتناديه مداعبة: محمود .. حموتي :3. يا روح أمك.

نظراته ترمقها ببرود .. لم تستطع إلا أن ترى البرود في عينيه بديهي..إنه لا يزال يظن أنها حركات واهية..قيمتها المنطقية صفر .

وتستمر بلاهة القدر، لا نعرف ما هو خيط الحقيقة ، لطالما كان تجمع العائلة حول الوليد أمرًا محددًا.

يريد أن يستسلم للنوم، لكن ضجيج السكان لا يسمح.

المدينة ... ليست المكان المناسب لهدوء أحدهم!

يسهل عليك عزل الأصوات عن دماغك، ساعة التفكير أنك تريد الهدوء حقًا، ولكن إن كانت تلك الأصوات.. فوق رأسك فوق الجزء العازل.. كيف تعزلها؟ وماذا إن كانت ضحكات لنساء لا

تعرف وجههن، وأسماء تشبه التشابه لولو ومومو وسوسو كلها هكذا.

يكاد ابن اليوم يصرخ:

ما بالكن؟ أين المنطق؟ إنه جنون؟ جنون حيواني لا بشري.

كان يريد الهدوء، ومَنْ لا يريده؟! وتلك الابتسامة التي نتبادلها نفاقًا .. إنها أخطر من كونها مجاملات.. كذب على واقع الوجود.

إنها الأقنعة، المجاملات بحد ذاتها أقنعة!

ليس بإمكانك أن تكون الصريح والمجامل في آن واحد، فمن يحزن من حقيقة كونه وكينونته أولئك الذين لا يتقبلونها، لا تحق لهم الحياة.

فأن تحيا بقناعك، هذه ليست حياة.

لحظات الطفولة .. مهما يكن فكرنا بعمق خلالها لن يكون بالعمق المناسب، بالبعد المناسب، وستشعر.. أن هناك حلقة مفقودة، أعظم من الحلقات الأُخرى، أولئك الذين جاؤوا بصمت؛عقلانيون، حبيسو الهدوء، وتوقد في نفسهم زخات المطر العديد من الأشياء.

الأهم!

يعرفون قيمة الكلام.

تمر الشهور الأولى بسرعة في ظلام الغرفة.. وفي الشهر الثامن عقب الولادة تخرج أولى كلمات الرضيع!

في الظلام الدامس بلا ضوء أطلق كلمة التساؤل التي اعتاد أن يسمعها من أمه؟

لطالما تصرخ بها في وجه والده؟ لكنه استساغها! لِمَ؟ أو لماذا؟

كانت هذه الكلمات إحدى طوارق الظلام طوارق اللا نور، وانحباس المعاني في الفضاء المُخفَى لا أحد يسمع همسات الكلمة يكفي أنه هو.. سمعها! وحركت في قلبه وعقله وقعًا غريبًا، وقعًا جعله يفتح عينيه الطفوليتين في الظلام، لا يرى شيئًا، ردّدها مرات كثيرة فقد وجد صوته لا يُشبه أمه ولا أباه، وجد نغمة جديدة، لربما عليه أن يعتاد وجودها.

لم؟

الكثير من الأشياء تحتاج هذه الصيغة من السؤال:

لماذا ..نحن على قيد الحياة؟!

لماذا .. نعيش المعاناة؟!

لماذا .. يعاكسنا القدر؟!

لماذا .. قُدِّرَ للبعض النجاح وللبعض الفشل؟!

لماذا؟!

لماذا؟!

لماذا!!!!!؟!

وتهرب الأَجوبة من الدماغ الطفولية، حين يتسلل النُعاس إلى العيون فتهمد الأب دان، وتختفي تلك الدندنات غير المسموعة، في صباح اليوم التالي، أصر على التكتم ..

كأنه أراد أن يخفي مقتطفات صوته، وما زالت أمه تُلوِّح برأسها،

في عقله تجول الأفكار، قارب على إكمال عامه الأول.. ما زال محاطًا بالتفاهات، مع ذلك كل شيء أكبر مما يتوقع، أمامه الكثير!*

الأم: محمود .. حموتي .. حماااصة .. من حبيب ماما؟! من؟

تمنى لو أنه يستطيع أن يخبرها، يستحيل أن أكون أنا .. تناسى هذه التفاهة لكنه اكتفى فقط بالنظر إليها ببرود

الأم: قل ماما أولًا.

الأب: ما الذي تفعلينه بالصبي؟

الأم: لا شيء.

ومحمود ينظر ببرود إلى تفاهة الحديث، والفكرة تجول.. لن أقول كليهما.

يكبر ابن العام.. وتكبر الدنيا من حوله، جميعنا يتوقع أنه عندما يكبر.. ستصغر الدنيا قليلًا، إلا أننا كلما كبرنا؛ كبرت الدنيا أضعافًا مضاعفة.

سيكمل عامه الخامس قريبًا.. ما زال يأبى الكلام، أمه ووالده يشعران بخيبة أمل..

والأطباء عمتهم الدهشة فالطفل سليم، عقله، حباله الصوتية وقدراته تامة. يجب أن يتحدث الطفل بالعديد والعديد من الأمور.

اتخذت الأم حينها القرار الغريب الذي نافى اتفاقها مع الأب، حيث إن محمود كان طفلًا غريب الأطوار ..

لا أحد يدري ما يفعله بمفرده طوال الوقت، لا يعرف الجيران أو أطفال الحي.

الأم: سأفعل ذلك.

الأب: ولكن يا بيني.

الأم: لا مجال لذلك.. عليه أن يخالط الأطفال.. لا شك أنه في العام القادم سيكون في المدرسة.. عليه ألا يجد الجو جديدًا .. أتفهم؟

الأب: عزيزتي ...؟

الأم: إنها قريبة ورسموها الشهرية زهيدة .. سيقضي الوقت هناك ويبتسم مع الآخرين.

الأب: حسنًا.. هدئي من روعك .. سنرى غدًا ما سيجري.

الساعات في الانتظار والتفكير تمضي ببطء، وقلب الأم .. خفقاته تتسارع فغدًا يوم مهم، هذا ما كانت تقوله لنفسها، وتشرق شمس الصباح .. خجلة من إثمها العظيم، أَحد الأَسئلة .. لماذا ندعو الشمس

بالآثمة؟ بماذا أثمت يا ترى .. بكونها مصدر الدفء الذي يغطي أُولئك محرومي السقوف؟ أم كونها ترحل ليلًا؟ ما إثمها؟!

وتشرق الشمس خجلة.. تبزغ بجبين متورد، فتسحب بانة زوجها عادل بحالة هستيريا.

الأم: استيقظ يا عادل .. هيا.

الأب: ماذا .. ما الذي يجري؟

الأم: هيا أسرع .. علينا الذهاب إلى رياض الأطفال المجاورة.

الأب: لِمَ؟

وكم من لم؟ دلت على البلاهة!

الأم: أريد خمسة كيلوغرامات لحمًا وسأذهب إلى الرياض عَلّي أجد الراقصة هناك فتضع لي الحليب في قارورة كحولية .

الأب: كُفّي عن الحديث بسرعة الضوء.. تذكرت.. من أجل محمود.

الأم: أجل هيا.

ترتدي ثيابها بسرعة كبيرة.

الأم: هيا .. لنذهب .. لنَذهب.

تسرع الخطوات فهي رغم أفكار الصغير المجهولة فإنها أمه على أية حال، والطفل يدور في ذهنه .. لم هي بكل هذه العجلة؟!

وأخيرًا .. سأخرج من هنا .. لأرى السماء، ماذا سأجد هناك؟!*

ما الموجود خلف جدران العزلة؟! وفي الرياض هناك؟

تجولت عيناه في المكان، الكل في خوض يلعبون، كلهم أطفال في النهاية.

ويفكر محمود:

كم هم تافهون! فما فائدة هذه الأفعال، اللعب بالرمال .. إن لم ندرس المنطق في الصغر، فلن نعشقه في الكبر .

لا يجب أن تسير الحياة على مبدأ لكل عمر أعماله الخاصة؛ فذلك الذي لم يعتد التفكير لن يفكر مهما يكن عمره!

وتنقطع سلسلة أفكاره وخزة من والدته.

الأم: محمود .. ألقِ التحية على المعلمة.

محمود.. يومىء برأسه ويصافحها، رامقًا إياها بنظرة التحدي، كأنه يريد منها أن تذهله أو أنه سيتخذ منها قدوة ما إن تثبت ذلك!

الأم: محمود .. اذهب للعب مع الآخرين؟

يرفع محمود كتفيه نافيًا فهو إلى الآن لم يتحدث.. البتة! ويسير في الاتجاه الآخر.

تتوجه الأم: بنظرها نحو المعلمة، وتنهمر من عينيها دمعة.. أعتذر دمعة.. ساعديه أرجوكِ.

وكانت المعلمة ماريا فتاة في بدايات شبابها عن عمر يناهز 22 أو 23 عامًا وكان مظهرها يدل على أنها فتاة مثقفة لا تخلو من الطيش.

ماريا: لا عليك ... إن الجو جديد فحسب .. سيتحسن الوضع.

الأم: أتمنى ذلك حقًا .. والآن علينا الانصراف إلى العمل .

ماريا: لا بأس.

كان محمود قد دخل إلى غرفة ما في الداخل، وأخذ ينظر إلى الكتب.

استغربت ماريا ... فهو بالطبع لا يستطيع القراءة!

وضع الكتاب في مكانه بلا مبالاة، وكأنه.. يفهم كل ما يحتويه ولا يعجبه المحتوى.

خرج من الغرفة عقب احتداد نظراته مطلقة الشرار تجاه ماريا، خرج لا مباليًا، وجلس تحت الأشجار يفكر كم نحن صغيرون في العالم!

ولكن الحياة عبارة عن شيء ما ..

يأخذ نفسًا عميقًا، يشعر بالهواء يتخلل الرئتين رئتاه ثقيلتان، يضع يده على صدره يتحسسه إنه لم يتغير، لكنه يشعر بالهواء، أجل إنه على قيد الحياة لأن الهواء يتلاعب بجسده الصغير.

تهب النسمات وتأتي ماريا لتحدثه.. ينظر باهتمام إلى الحديث:

ماريا: السماء ... جميلة؟

يغمض عينيه ويعمق النفس أكثر كأنه يشير إليها بالإيجاب.

ماريا: هل تجيد القراءة يا محمود؟

نظر إلى عينيها بعمق كأنه يريد أن يقول الجواب بديهي ولكنه تذكر أن ما هو بديهي بالنسبة إليه غريب في عالم الآخرين.

نظر بعمق أكبر يبحث عن بوادر يستطيع على أساسها أن يتشبث بالثقة.

أراد بكل قوة أن يقول: أستطيع قراءة ما وراء الحروف لكن الحروف لا أعرفها.

لكنه اكتفى بالرمقات ومن ثم أغمض عينيه .

فأدركت أنه لا يريد الإجابة.

دمدمت بحب : لا بأس

تنسحب ماريا بهدوء وهي ترمق محمود وتزيد من طول النظرات كأنها تحفظ تفاصيله؛ لتتخيلها في أحد أحلامها الليلة أو لكتابة قصيدة لا تخلو من غزل ...

ولربما لتفكر في أمسيتها الشاعرية فتكتب قصيدة تتساءل فيها عما يدور في خلد طفل بعمر خمس سنوات، وما معنى نظراته الأعمق من أن تكون مجردة من التداخل، ويظل هناك قابعًا تحت الشجرة، وتدب في قلبه فكرة، سؤال .. أو تساؤل؟

لِمَ؟

لِمَ .. ثم ينظر حوله، لم الأطفال .. يلعبون ها هنا؟

وما شعور ذلك الذي يعبث بالرمال؟

لِمَ كانت نظرات ماريا لا تشبه المعتاد؟

لِمَ؟

هذه الصيغة من الأسئلة هي بدايات فهم الأشياء، بدايات التحليل المنطقي، سؤال دار في ذهن محمود:

المشاعر .. لقد كانت واحدة من الأسئلة فما المشاعر أصلًا؟

وكيف عرف هذه الكلمة؟ أين سمعها؟

ماريا : محمووووود... لا يجب أن تبقى ها هناك.. المطر غزير ..

مد محمود يده... إنها المرة الأولى التي يلامس فيها المطر، يمد ذراعه و هو متأكد أنه ماء ليستشعر المطر، ذرات المياه الضئيلة فيشعر بحنانها .. إنها ليست باردة كما اعتقد ذات مرة حين رأى انسدالها من نافذته ..

رمق السماء وفكّر؟

المطر.. إنه جميل .. لكن السماء كانت قمة في السكون منذ لحظات فمن أين جاء المطر؟ وهل كان السكون هو ما قبل العاصفة؟!

وشعر أن ذرات المياه لا تصل إلا ليده الممتدة في الهواء، فالشجرة تعزله عن المطر ..

إنها تحميه منه ...

فرك حباته اللؤلئية ضمن راحته، إنه المطر ... يشعر به ...

هذا هو الشعور؟!

هل هذه المشاعر؟

المشاعر هي عبارة عن حبات مطر؟

ماريا تركض مسرعة بالمظلة والمعطف.

ماريا: هيا هيا .. ستصاب بالبرد.

خطواته مسيّرة من قبل ماريا وعيناه تناجيان السماء تحدثاها وكأنهما تتحدثان مع المطر ...

نظراته تعانقها الأخيرة وما زال يفكر ما هذا الذي شعر به آن ذاك ..

ما المشاعر؟

كلما كبرنا تكبر مداركنا.. نظرتنا إلى الحياة تتوسع وتكبر، لنكون نحن يجب أن نكون أدمغة، وأن نفكر لنفرض وجودنا وذواتنا، لا يهم أن تصرخ أنا هنا!!!!!!.

إن كان بإمكانك أن تجلل المكان.

بفرض حضورك صامتًا!

وتأخذنا الأفكار وتعيدنا، ولا يزال الحديث صامتًا، إشارات ذات معانٍ هائلة.

رغم أن رنين حباله الصوتية رائع ...

لا يستطيع محمود الآن سوى أن يفكر ويضع أفكاره الأولية في عقله الصغير، أو بالأحرى في عقله الكبير أسير جسده الصغير، تتوالى الأيام ولتكون معًا شهرًا جديدًا.

ماريا: محمود :.. ألا تريد أن تشاركنا اللعب؟!

يحرك رأسه نافيًا، ويتوجه إلى المكتبة وينتقي كتابًا، تقترب ماريا .. لتقرأ الكلمات المخطوطة هناك لـــ محمود لكنه يُخفي الكتاب، ينظر إلى الصور مطوّلًا ثم يغلقه، يركض حيث توجد شجرته، يتربّع هناك، ويتخيل الأحداث، تهلّ ماريا على المكان.

ماريا: أتريد أن أُعلّمك الأحرف والأبجدية؟

تتسع حدقتا محمود، أراد أن يهمس: أحقًّا؟ لكنه فضل البقاء ساكنًا والنظر إلى عينيها وبرمشة واحدة أكد لها رغبته العارمة فاختفت ماريا خلف النور لتعود بعد دقائق تحمل كتابًا، أخذت تعلمه الأحرف المتموضعة داخله.

كان محمود يجلس متأملًا إياها ببريق عينيها المليء بالإعجاب، فمحمود ذو عقل صاف.. إنه سريع الاستيعاب، يميز الوقع الموسيقي للأحرف، ويتذكر الكلمات التي رآها سابقًا، فيجد نفسه يعرف الكثير، كل ما عليه فعله هو القراءة رويدًا رويدًا.

وتجول عيناه بين الأحرف والكلمات.

إنه قادر على تهجئتها.

تبتسم ماريا.. رغم أن محمود لم ينبس ببنت شفة فإنها كانت متأكدة أن ما يدور في خلده أكبر بكثير مما تعتقد، كانت تشعر بمتعة من نوعٍ ما وتكمل ويكمل شروده، ما هي إلا نيف من أشهر حتى أصبح محمود قادرًا على القراءة كالبالغين، لكن وحده دون أن يعرف أي بشري بذلك.

ويمر الشتاء وينقضي الربيع والصيف أخيرًا ها هنا.

إنه أول وآخر عام لــ محمود في الرياض.

وكالعادة إنه متمدد تحت شجرته فتأتيَ ماريا من البعيد.

ماريا: لقد أصبحت فتيًّا.. إنها آخر مرة تكون فيها هنا فيضع يده على فمها.. كما تفعل مع الأطفال، إشارة لها أن تهديء من روعها وتصمت ...ينظر إليها ... ويتبادل معها نظرات أنا بخير.

محمود: هدوء الهواء الصيفي..رائع.. دعينا لا ندنس صفو الهدوء.

تنظر ماريا بتعجب..محمود...صوته المشوب بالحكمة النبرة الهادئة والكلمات الواثقة.. الكلمات.. لا يعقل أن تصدر عنه..

ماريا محمود .. : أنت ..

فيكرر نفس الحركة مع صوت خافت هس.

محمود الوجود يكمن في الهدوء .. لا أحب عبث الأصوات .. لا تجعليني أضطر لاستخدامها.

ماريا: لكن لِمَ؟

محمود: لا أريد لأحد أن يعرف بهذا، إنه سرنا الصغير، ويرمقها بنظرة أنصحك ألا يعرف أحد بذلك.

تهطل دموع ماريا ...

ماريا: أنا ..

محمود: وفري الدموع .. والأصوات .. أحبذ الهدوء.

تتلألأ عينا ماريا .. الهدوء .. رائع.

يصعب أن تكوّن شعور الثقة المطلقة بأحدهم. فالثقة تتربع على درجات لا يستحق تلك العظمة سوى الخالق. في حين تستحل ذاتك ما دونها والآخرون.جميعًا ... يبقون في مراتب متدنية، أقصى المراتب أولئك الذين حازوا المرتبة الثانية إلى الثالثة.

وأدناها أولئك الذين نراهم في لقاء أول.. فيستحلون مبدئيًّا الدرجة الأولى. وتترفع الدرجات عندما يخبرك أحدهم .. أنا أثق بك،

فتأكد أن ثقته لا تتخطى الدرجة الثالثة، فما زلتَ قادرًا على جرح مشاعره، وليس فقط تحطيم المواقف.

ينظر محمود بعيني ماريا المتلألئتين ...

محمود: أنا سأبقى هنا بعض الوقت ..

قمم بالرحيل ماريا

محمود: ماريا.

كان الوقع جميلًا على أذنها .. من صوت ابن السادسة الحكيم.

محمود: أنا سأحاول أن أثق بك .. أو أن أتخطى الثقة .. لكن أنتِ من سيثبت إمكانية ذلك.

ماريا: كفاكَ عبثًا أيها الصغير..ما زلتُ قادرة على جذب أُذنك..

يعود الهدوء

يبتسم محمود ... وترتجل ماريا إلى النور ..

فتختفي في البعيد ..

الأم: محمووووود .. أين أنت؟ محمود؟!

الأب: إنه هناك.

تركض بانة أو المعروفة بـــ بيني ..

الأم: ها أنت هنا .. لقد أقلقتنا عليك يا صغيري..

يحاول محمود التملص من العصر.. فهذا ليس حُضنًا إنه هرس بشري.. لكن شيئًا ما يدفعه إلى الالتصاق بها.إنه يلتصق أكثر.. ويزيد التوغل ويزيد الاندماج بين الجسدين، فمن رآه اعتقد أنه سيعود جنينًا في رحم أمه.

الأم: هيا بنا ...

ويسير الصغير.. رغم كل شيء لا يزال طفلًا محوّطًا يد أمه إنه يعصرها.. لكن قوته ضئيلة.. لا يستطيع أن يزعزع شيئًا من كيانها أو أن يغير موضع إحدى العظام، إنه العجز المطلق.

يستحيل لابن ست سنوات أن يقوم بعصر يد بالغ

وترتمي عينا محمود على إحدى الواجهات إنها مكتبة هناك.

والمكتبات بديهيًا تحوي الكتب، حديثًا المكتبات التي تحوي الكتب بين صفوفها منقرضة وإن وجدت فقد كدسها الغبار، فلا عيون تقوى على القراءة ولا عقل قادر على التحليل، ترمقها العيون تلك الواجهة تبدو مهجورة.. لا حفيف لأوراق الكتب لكنه يسمع حشرجاتها تعم المكان أنفاس الكتب المتصاعدة..

إنها تريد من يرمي الغبار عنها، الكتب تناديه من خلف الزجاج

يجر يد أمه.. يمسك بيدها.. يجذبها بقوة مستحيلة.. كان هناك من يجذبه بذات القوة..إنه الشغف الذي يجره إلى تلك الحشرجات الضئيلة، ولكل فعل رد فعل، رد فعل انجذابه هو انقياد أمه..لكنه دمر بنيان القانون فقط كانا بنفس الاتجاه، رغم مقاومة الأم موضحة أنه

الطريق الخاطئ، لكنها نظرت بعيني المهووس هناك، ذاك الذي لم يتناهَ صوتها إلى مسامعه.. وتسير إلى نهاية الطريق.. عند البنيان المهجور.. المعنون بلافتة مهترئة بداية الطريق..وخط تحتها بأصغر أنواع الخطوط بداية الطريق فكرة تكبر مع كتاب.

يدفع محمود الباب..

الأب: ما الذي ...؟

تضع الأم: يدها مغلقة فم الأب بطريقة لطيفة.

تتملص من يد محمود لتتركه يسير إلى ما يريد، تدفع الأب لرؤية ما الذي سيجري، يتوه بين الرفوف العملاقة، بين أكوام الغبار، ويتلاشى العالم الكبير من حوله ليضيع في حيز كان بالنسبة له أكبر مما تخيل يومًا.

ينظر بعمق لا ينجذب إلى تلك الكتب التي تحوي بين سطورها قصص الأطفال بل ينتشل كتابًا في الفلسفة وآخر في المنطق، وقصة أسطورية.. عجب من كمية الغبار المكدسة فوقها، حمل الكتب الثلاثة وهو يرمق الرفوف الفلسفية الضخمة، وصفوف علم المنطق وتلك القصص التي لا تخلو من الإثارة، يتخطاها فتقابل عينيه كتبُ الأطفال ليشعر بالاستخفاف بذواتهم ، فالأطفال لا يحبون هذه الكتب، ويسير الطريق وعيناه منتصبتان هناك أمام الرفوف، ويمد الكتب بيده إلى أمه، التي تعجب من خيارات ابنها!

تمسك الكتب، إنها كلمات غاية في الصعوبة والمفهوم أصعب!

الأب: هذا جنون ... إن قصص الأطفال هناك!

ويشير إلى كتب قَلّ عنها الغبار فيرمقه محمود بنظرة أحقًّا؟

الأم تُناجي محمود: هل تجيد القراءة؟

ينظر محمود إلى الكتب ويدير وجهه بلا مبالاة فتزفر الأم.. وكأنها اعتبرت الإجابة نفِيًا، وكانت تتوقع عكسها، وترفع نفسها وتنظر إلى الأب بنظرة هيا لنأخذها عزيزي .

الأب: لا .. بيني .. ما حاجتنا بكتب كهذه!

الأم:نتركها في غرفة.. ليقرأ بها.. لن ينشر العبث بالكتب..

الأب: لكنه لا يستطيع القراءة -_-

الأم: غدًا يكبر ويجدها فيعرف أنه في صغره..جذب انتباهه كتاب كهذا.

الأب: ولكن...

الأم: ألم ترَ تلك النظرة في عينيه.. تلك الاندفاعة.. إنها ليست باندفاعة طبيعية ولا بنظرة هائجة.. إنها تخفي العظمة خلفها.. إني أثق بذلك.

كانت أيضًا نظرات بيني .. يشوبها الأمل والرجاء.

تناول الأب الكتب وانطلق إلى ذلك العجوز.. الذي يجلس مرتخيًا على الكرسي ويقرأ أحد الكتب التاريخية ..

رفع العجوز نظراته إلى الأب.. رمقه مطولًا.. ألقي نظرة على الكتب. وبصوته المرتجف :

- إنه ذكي .. لقدَ أحسَن الاختيار.

طلب منه سعرًا زهيدًا مقابل بيعه الكتب .

الأب: أليس هذا زهيدًا؟

العجوز: السبب الأول أحبذ أن أكون أول من يهدي العبقري كتابًا .. ثانيًا الكتب والكلمات ليست تجارة .. إنها حياة.

يتناول الأب الكتب وهو لا يعي ما يهذي به الرجل ظانًّا منه أنه خرف، في حين ينظر الطفل إليه ويبتسم ابتسامة مؤيدة للقول، ويخرج من هناك مقابلًا السماء من جديد، ولكنه هذه المرة مقتنع تمام الاقتناع أن هناك ما هو أكبر من العالم الواسع في الخارج، وأن الأشياء لا يُقاس كبرها بحجمها بقدر ما هو ذلك الوقع المتروك بأنفسنا.. وعمق أثر أقدامها.. جلجلة خطوط مرت من هنا.. هكذا نقدر حجم الأشياء وماهيتها.

***

مر الصيف وفي ثنايا الغرفة المقفلة يتربع العقل.. ينتشل الكتب من هناك، وكأنه لا يريد لأحد أن يعرف أنه يقرؤها فعلًا، وتجول عيناه بين السطور، يقرأ عن الكون الواسع وعن الأحلام وانحرف مساره قليلًا.

فقرأ بعض الخيال، لقد كانت قراءته مذهلة، فأغلب الكلمات أصبحت مألوفة لعينيه، وبعضها استغرق وقتًا في تهجئتها، ويتناهى إلى سمعه وقع الخطوات.. أذنه التي اعتادت أن تشعر وتسمع احتكاك التنورة بقدمي أمه المنطلقة على الأدراج .. قاصدة غرفته في الأعلى..

يعيد الكتب إلى مكانها ويجلس بالقرب من النافذة كالعادة، وتقرع الأم الباب؛ فيشعر محمود حينها بشيء من الاحترام ..

أن أمه تُقدّر خصوصيته الراسخة بين الجدران وتحترم عزلته وصمته، تحترمه رغم أنها لا تعرف شيئًا! يا ترى هل هذا حدس أمومي المستقبل؟

أم أن الاحترام ما يقودها إلى ذلك؟ ولِمَ الأطفال لا يحظون بالاحترام ذاته.. الذي يقدّم للبالغين؟!

فأهم أنواع الاحترام.. هو احترام الفكرة النابعة من دماغ أحدهم رغم سخافتها أو بديهيتها.

وبعد عدة قرعات .. لم تكن متبادلة تفتح الباب، فقد اعتاد محمود أن يبادلها القرعات إن كان لا يريد منها الدخول..

وكانت هذه حالات نادرة ..

تفتح الباب ببطء وتطل برأسها.. ومع الإطلالة تلقي أول الكلمات على مسامع محمود.

الذي شرد حقًّا بفكرة ما عند أعتاب النافذة..

الأم: محمود!

ينظر إليها بنظرته المرحبة.. فقد كان صوتها له نغمة خاصة.. نغمة حانية حقيقية..

تتقدم بهدوء وتحوطه، لا يحاول التملص هذه المرة..بل يجلس في استكانة.. كأنه احتاج ذاك الحضن حقًّا!

وهو في حضنها عند أعتاب النافذة ينظران معًا من خلف الزجاج ..

الأم: سينتهي الصيف قريبًا! الجو جميل.. والأطفال يلعبون في الخارج .. ألا تريد الخروج؟!

ينظر إليها محمود، كانت نظرة عينيها حالمة مفكرًا أن لا بأس بالسير قليلًا تحت السماء الواسعة، سيشعر ببعض الاستكانة.. إن رأى الطيور تحلق، كانت صلة محمود بالسماء والطيور أعمق مما يمكن لأحد أن يتصور، فقط كان المشهد الأول الذي جذب انتباهه..

يجذب يد أمه ويقفز بها كأنه يدعوها للخروج سريعًا يعجبها الحماس.. تسير خلفه .. ويترجلان في الطريق .

الأم: إلى أين؟!

فيضع محمود يده على فمها مشيرًا لها بالهدوء.. دون أن يصدر أي صوت ..

ويستمر بجرها..حتى يصلا إلى فراغ فسيح محوط بالشجر، الشجر العالي الذي ينشر الأفياء في المكان، يشد على يدها فتنظر إليه، يضع يده على أذنه ويميل بجسده قليلًا كأنه يخبرها ويحثها على الاستماع ..

تصغي السمع .. زقزقة العصافير .. إنها بنغمات مختلفة .

تتفاجأ.. هذه المرة الأولى التي ترى هذه الفسحة هنا وتسمع هذه الزقزقات.

يجرها محمود ويركض سريعًا ثم يتملص من يدها ويلقي بنفسه تحت الشجرة واضعًا يديها تحت رأسه متأملًا فتفعل ذات الشيء..

فتشعر بشيء من الطفولة تتخللها .. ثم تسرح مع محمود في فضاء الأفكار، والصمت سائد.. هو يتأمل السماء، ويفكر في الكون الفسيح، في الأصوات والطيور والحياة، وهي تفكر.. فيمَ يفكر!؟ فصغيرها له شيء من تفكير خاص .

ما يقارب الساعة الهدوء نفسه .. لم يتحرك إنشًا واحدًا، حتى أنه لم يرمش مدة نصف ساعة، ثم أغلق عينيه مرة واحدة، وأخذ يُخيِّلُ للأم أنه نائم..

فأخذت تتخيل أنها تداعب شعره.. كان الشعور رائعًا، فهي لم تعتد ذلك؛ لتملصه الدائم منها..

تقترب يداها من رأسه .. ناوية أن تداعب شعره، لكن شعورا من داخلها يمنعها !!

وكأنما صوت يرن بداخلها أنه يجب عليها أن تحترم رغبة صغيرها.. فتبعد يدها، إلا أنها تتعجب من جنونية الموقف..

فـــ محمود يفتح عينيه ويمسك بيدها ..

ينهض سريعًا فتنهض معه ..ينظر بعينيها الحالمتين ثانيةً..إنهما تلمع بكلمات الثقة.. يدفن رأسه في حضنها؛ فتعانقه عناقًا مليئًا بالحب، لكنه كان عناقًا من طرف واحد.. فقد نسي أن يفتح ذراعيه فيبادلها العناق..

ثم يعود للبرد.. رغم أنه لا يعرف السبب الدفين وراء ذلك فإنه شعر بحاجته للحنان .. افتقدت فجأة هذه الحاجة فأصبح يبحث عمن يمده بالحنان والتي هي بالطبع أمه ..

يترك حضنها وكأنه اكتفى من فرط الحنان.. وكأن قلبه توقف عن العمل. وأخذت أنفاسه تتثاقل..

عاد إلى البرد.. وكأن الحاجة إلى المشاعر تدفع جوارحنا إلى الاتقاد .. تدفعنا للاشتعال بجنون .. حتى تخمد ثورة النيران ..

هذه الثورة لا تخمد إلا بتلبية حاجتها من عمق الإحساس داخل مكنون العناق..

ويسير ببرود ظاهر .. وكأنما اكتفى لليوم .. اكتفى من كل شيء وحان وقت العودة إلى جدرانه.. ويدخل غرفته ليكمل صيفه هناك.. تاركًا على وجهها.. ابتسامة خفية.. وشعور فرح محلق .. إنها بذرات السعادة .. لكنها بذرات فحسب!

***

ينطوي الصيف .. ويأتي الخريف..

الخريف! إنه رائع..

الأوراق المتساقطة وذرات الهواء المتشابكة تلوح في رقصة شعبية أو حلقة دبكة من نوع فريد.. فتطاير خصلات شعر تلك السيدة التي تمر من تحت نافذته كـــعابرة سبيل..

تقرع قرعات متتالية ويلوح صوتها جليًا مع إشراقة شمس السادسة صباحًا..

الأم: محمود ... هيا!

يفتح الأبواب .. بزيه المدرسي الموحد!

الأم: كان عليك أن ترتدي ثيابك العادية فاليوم الأول مميز.

لا يعتقد محمود أنه يجب أن نجعل البدايات مميزة ونعيش الملل في الثنايا والمضامين ثم نختم النهايات بتميز معاكس للبدايات.

يومئ برأسه .. معبرًا عن ارتياحه هكذا.

فتصاب بخيبة أمل ... خيبة أمل ذريعة ..

الأم: هيا بنا وتمسك يده.

يعلو نفير السيارة المكان

الأم: أوقف هذا الضجيج! الناس ما تزال نائمة .

الأب: اليوم أول أيام المدرسة فيكف لهم أن يناموا.. جميعهم مع أبنائهم الآن.

يصعد محمود إلى السيارة ويضع حزام الأمان فورًا!

تنظر الأم مندهشة من شدة إدراكه للأمور ..

ويقود الأب السيارة على مهل مع بعض الموسيقى الصاخبة؛

مما يثير الغضب في نفس محمود.. وهذا يبدو واضحًا كالشمس للأم. في حين أن الأب لم يلحظ ذلك على الإطلاق.

الأم: عزيزي .. هلّا أخفضت الصوت!

الأب: لِمَ .. إننا نحبها هكذا بيني .. أنسيتي؟

فتشير بحاجبها أن ينظر إلى الخلف ..

فيدرك أن محمود منزعج من الصوت.. وأنه غاضب بشدة.. لدرجة إغلاق أذنيه ..

الأب: أعتذر عزيزي .. سأوقفها حالًا ..

تتوقف الموسيقى ويكملون الطريق.. بهدوء تام لا يتخلله إلا بعض ضجيج ناتج عن الطرقات السيئة والحفريات ..

عيناه تجولان في المكان..كان يقرأ اللافتات والإعلانات في الطريق بسهولة تامة..

حتى مرت السيارة أمام لافتة كتبت باللغة الإنجليزية.. هنا أطلقت عيناه القوة وأفسحت المجال للعقل أن يحفظ تلك الرسوم!

كانت تلك هي المرة الأولى التي يصادف فيها شيئًا كـــهذا!

أولى أيامه في المدرسة مضت برتابة خالية من الكلام..

***

وتمضي الحياة..

- نتعلم الأشياء الجديدة التي تبهر عقولنا، والتي لربما نراها شائكة في بداياتها، ولكنها تكبر مع كبر إدراكنا للأمور..

تقبع الفلسفة في آخر الأشواط التي ترتبط بحياتنا الدراسية.. إلا أنها الشوط الأول .. في الحياة العملية.

أن تكونَ صديقَ كثيري الكلام أولئك الذين يدنسون الهدوء ولا يقدرون قيمته لهو أمر شائك .. وصعب أيضًا!

يمضي العام الأول ومحمود يتعلم المواد التي كان خارقًا في إدراكها جميعًا .. الرياضيات، العلوم، اللغة العربية، وبدايات الإنجليزية!

وينقضي العام الأول على مقاعد الدراسة.

ويمضي الصيف كـــسباقه، مرت أعوام محمود الأولى بسلام، لكنه دوّن خلالها بعض النقاط.. فقد لاحظ هناك في المدرسة أنه لا يحب المناطق الشاهقة. وأن شعورًا غريبًا يتخلّله ..

إنه الخوف..

حين تضع يدك على قلبك فتجده يخفق بجنون.. وقدماك لا تقويان على حمل جسدك رغم صغر حجمك.. تتداخل المشاعر في الخوف ولا تعي ما تفعل.. لا تسيطر على ردات فعلك..

يجلس محمود قرب الشباك.. سيصبح في الصف الثالث السنة القادمة..

إلى الآن لم يتحدث بأي حرف سوى مع ماريا، يضع يده على قلبه ويتذكر.. الخوف ذلك الشعور المقيت.. فيهمس في قلبه..

محمود: ما الخوف؟

فيضع يده على قلبه مرارًا وتكرارًا.. يتصاعد نفسه..

دقات قلبه طبيعية .. لا تشبه تلك التي أحس بها حين كان على قمة مرتفعة ..

ويهمس بتثاقل.. انقطاع النفس.. حين يجن جنون القلب..
وانغماس المشاعر في خمول.. حين يتربع الخوف على العرش الأعظم..

فلا تشعر سوى برغبة في التملص من كل شيء، وتفقد السيطرة
الجزئية على ردات فعلك.. تصبح في تشوش..

إنه كالمطر الذي يأتي فجأة في الربيع دون أن تهيئ نفسك له..

وتتلعثم المشاعر فـــتخوض في العبث.. تختلط كل المشاعر التائهة

في شعور واحد.. الخوف..

وقع صدى الكلمة شنيع!

يقول محمود هذا ويرددها مرارًا وتكرارًا..

- الخـــــوف .. الخـــــوف..

إنها حقًّا شنيعة!

يلقي بنفسه على السرير.. ويأخذ نفسًا عميقًا..

محمود: مِـــمَّ أخافُ؟

رجف بدنه واهتز بقشعريرة..

المرتفعات .. لا أحبها! و...

أغمض عينيه متخيلًا كونه وحيدًا في هذا العالم..

بلا أحد .. لا عائلة ولا بشر ..

إنه يخاف أن يكون وحيدًا في العالم.. يخاف ألا يستيقظ يوميًا على ابتسامة أمه ..

وتقطع الأم سلسلة الأفكار.. بدعوة محمود إلى الغداء..

ليس من السهل أن تخرج بتلخيص للمشاعر..فهي كثيرة على حد السواء.

الخوف.. شعور رهيب.. رهيب بشكل سيئ.. إنه ينشر في أركاننا العبث،واللامنطقية..

فنسعى بشتى الوسائل.. إلى التخلص منه!

الأم: محمود.. هل أنت هنا؟

يترجل .. فيفتح الباب وينطلقان

يتناول غداءه بشرود ملحوظ، والأم تنظر في عينيه لتجد شيئًا من التفكير العميق..فيبادلها النظرات.. كانت أطول محادثة نظرية بينهما..

أكد من خلالها للأم أن هناك ما يشغل باله!

وتمر الأعوام.. بقدر التفكير العميق والواسع للأطفال..ورغم تميزهم..فإن توصلهم للنتائج النهائية يستغرق وقتًا.. المشاعر تتضخم مع نمونا، وتقدمنا في الحياة.. الخوف، اليأس، الكراهية، الحب، الأمل، الفرح، والحزن، الاشتياق، والحنين ..كلها مشاعر..كلها تكبر!

لكن بعضها يسيطر!

الكراهية لا تجتمع مع الحب، وإن اجتمعت فأحدهما يسيطر فيلغي جزئيًّا مفعول الآخر.. الأمل واليأس.. بعضها يسيطر والبقية توابع.

عليك أن تنتقي قائد المشاعر بحذر فهو يحدد شخصيتك! يحدد مكنون قلبك، وطريقة هيجان أمواجه، وتتفتح العقول.. في أعوام الرسوخ الأولى.. تبدأ الأمور بالاتضاح والانفتاح، ولكن الكلمات لا تعبر عن البدايات دومًا..فهي من طعم خاص.

***

في عامه الرابع من المدرسة التي سادها الصمت وجد محمود الصديق الذي أحبه كما هو بلا أي دواعٍ للكلام بلا فضول.. كانت النظرات تفي بالغرض ليتمتما الجمل معًا..

كان الطفل الآخر.. كثير اللعب والحراك .. لم يكن بذات الهدوء، لكن كان له تفكير عميق من منظوره الخاص..

تأملاته تقتصر على ماهية وجبات الغداء المدرسية، أو هل سيلعب الكرة اليوم أم الغميضة؟

كان محمود يحب النظرات التي تظهر على صديقه حين يقوم بشيء مسلٍّ، أو مقلب بأحدهم.. فيُغشى عليه ضاحكًا ودموعه من عينه تنهمر فرحًا!

اقتصرت الأحاديث على النظرات.

كان يُدعى غيّاث! كان ولدًا له طابع أجنبي.. لربما لأن أصول أمه من روسيا، وكانت لكنته العربية غريبة بشكل مضحك.. حيث إنه أمضى بدايات حياته في روسيا، وهناك تعلم الروسية وبعض الإنجليزية والعربية..

ولا يزال من الصغر بحيث إن لسانه لم يعتد ثقل اللغة العربية بعد؛

لذلك كان يحبذ الصمت أكثر من الكلام.. لأنه لا يحبذ موقف سخرية الجميع من لكنته الغريبة ..

غيّاث: دعنا نلعب الكرة .. إنها رائعة ..

يهز محمود رأسه نافيًا!

غيّاث: سينتهي العام الدراسي، وأنت إلى الآن لم تلعب معي لا يجب أن تقضي عمرك في القراءة .

يرمقه محمود .. بنظرة .. دعها تمر في سلام .

يصمت غيّاث قليلًا ثم يضيف .. لنلعب!

يستغرب محمود ... فغيّاث يعلم أنه لا يحب اللعب..

غيّاث: أنت لم تدعُني لأقرأ معك من قبل..أنا لست جيدًا في القراءة على أية حال ..

ينظر محمود باستغراب.. ثم ينظر إلى واجهة الكتاب ..

ما الذي جعل غيّاث يغير رأيه؟!

كنز مدفون في قاع الجحيم!

هذه الكلمات خطت على الصورة المزركشة لكتاب في الفلسفة

كان مضمونه عن الفضول والنواتج عنه..رواية فلسفية منمقة .

أشار محمود برأسه أن لا بأس، وناوله الكتاب ليقرأه..

يستغرب غيّاث صعوبة الكلمات.. يقوم بحركات مميزة تدل على أنه لا يفهم شيئًا!.. فيمد محمود يده ليتناول كتابه، ويسوق غيّاث إلى المكتبة.. فيختار الكتاب المناسب!

يقرآن معًا طيلة الوقت المخصص للاستراحة وما بعدها وحتى الانصراف للمنزل ..

يحرّك غيّاث رأسه فرحًا..فيما ينظر محمود إلى السماء بتأمل..

ما زالت علاقته بالسماء أكبر من أي شيء آخر.. فهو يجد السكون والراحة النفسية حين ينظر إليها،ويتأمل ها هناك.. بحضورها وحضور نجومها.. يعيش الاختلاف، وفي ذات الوقت يسبح في الانسجام.

غيّاث يقدّر دومًا ما يفعله محمود، ويسعى ألا يُفسد وحدته بمشاكساته.. لكن محمود اليوم كان ذا نظرة أخرى.. نظرة تفكير عميق!

وكأنه يغوص في فضاء فكرة ما.. نبضات قلبه أصبحت ترتفع، وصراخها يملأ المكان..

إنها تدق بسرعة جنونية معبرة عن اللا وعي..إنها مجنونة.. الجميع شعر بها..إلا صاحبها.. لم يشعر بالألم.. لربما لأن عقله غارق في التفكير..

فيلمس غيّاث ذراعه لتسأل عيناه ما بك ؟ يرفع محمود كتفيه مع مد فمه قليلًا موضحًا أن لا شيء يُذكر! ويُكملان الطريق صمتًا.. حتى يرحل غيّاث عند مفترق الطرق الأخير، ويُكمل محمود السير إلى منزله في الطريق الفارغ وحيدًا! وتُراود رأسه فكرة أن عليه أن يكون شخصًا فعالًا في المجتمع.. وأنه هو أيضًا يريد أن يكتب كتابًا، ولكن كيف يمكنه ذلك؟ وما الذي سيكتب عنه أصلًا؟!

ويجد نفسه وصل أمام المنزل.. فيقف في دهشة.. كَم من الوقت استغرق في التفكير؟!

نهايات المرحلة الابتدائية عادة تحوي الكثير من التغيرات.. من حيث النمو والإدراك الواعي للأمور، والأفكار والأحلام المجنونة التي تراودنا..

لا يعني أن تكون مفكّرًا أن تتخلى عن الجنون.. فالجنون والمرح والتصرفات التي يعتقد البعض أنها لا تصدر إلا عن البُلْه..

هي أكبر دليل على أنك ما زلتَ إنسانًا.. تفعل الأشياء كما تريدها..

كن مجنونًا بالنسبة لهم وعندما يحاورونك يصابون بالجنون..

يصل إلى المترل يفتح الباب على مهلٍ ويرتقي الدَّرج.. قاصدًا غرفته، لكن شيئًا ما من حديث والديه يتناهَى إلى مسامعه!

الأب: أخبرتك أنه لن يتكلم.. عليك استيعاب فكرة أن طفلك أبكم..

الأم: سيتكلم، وسترى.. إني أشعر بذلك.

الأب: لا يهم..إني أستسلم..لقد يئست.. لن أتعلق بأمل متناثر.. لن أندثر لأُصْدَم بالنهاية.. لن أترك قلبي ليتألم أكثر.. أتعتقدين أني سعيد لأنه لم يتكلم ها...؟!

ما بقي من الحديث لم يعد مسموعًا.. فقد سمع الكلام في طريقه إلى غرفته، لم يفكر أن يوقف قدميه اللتين كانتا تخضعان لأوامر عقله ألا يسمع المزيد، وأن عليه أن يسرع.. فلربما القادم أسوأ..

أطلقهما للا شيء..

عله يساعده على تخطي الدرج الطويل والفسحة إلى غرفته..ليرتمي على السرير مفكرًا...!

الكلام.. الحروف لا تعني شيئًا لِمَ هتم! لِمَ يهتمان؟! بالطبع لست أبكم! ولكن ماذا لو كنت حقًا؟! ولِمَ ييأس؟! ما اليأس؟ ما اليأس؟! بالفعل أمر عجيب .. ثم تقفز الفكرة إلى رأس محمود..

سأكتب كتابًا..

لا تيأس فهو ليس أبكم، وسيكون كتابًا رائعًا ..

أخرج كتبه وأخذ يستطلعها محاولًا أن يتناسى يأس والده والحديث الذي دار بينهما ..

يخرج من غرفته على أمل أن يكون النقاش قد انتهى فيعلمهما بقدومه!

قدماه تسيران..الخطوات متثاقلة! وجسده لا يخلو من بضع رجفات ..

إنه يخطو بحذر .. ببطء .. حتى يصل إلى باب الغرفة ..

أراد أن يقرعه ..

شيء من الخوف يجتاحه.. يخبره أن عليه التراجع من هنا.. فالنقاش لم يكن بالوتيرة المعتادة..

ومع ذلك! كان عقله الحكيم يتقدم بثقة .. يقرع الباب..

الأم: تفضل.

يدخل محمود بوجه تملؤه إشارات الاستفهام.. إنها المرة الأولى التي يرى دموع أمه.. يشعر بشيء من الغضب.. ويتذكر الخوف ثانية..

إنه لا يحب دموعها.. إن عليه أن يخاف من أن تذرف أمه الدموع سرًا مرة أخرى..

بلا صدرْ يضمها ويربت على كتفها .. فماذا إن كان الصدر تائهًا ولا أحد.. تبكي سرًا.. مغلقة فمها لكي لا يسمع الشهقات أحدهم..الشهقة اختناق والزفرة غُصة..

تمسح دموعها مخفيةً وجهها لتستقبل محمود بصدر رحب فتعطيه من الغمرات الكثير ومن القبلات الأكثر..

ولكنه شعر هذه المرة أنها هي من احتاجت تلك الغمرات..هي من كانت بحاجة لبعض القُبل.. وأن قلبها الذي كان أوسع من الكثير... أكبر من محمود.. كان يسعه هو وعادل معًا.. كما أنه لا يشك أنها تحب ابنة الجيران..جارتهم ذات الاسم الغريب.. فقد كان اسمها ماتيلدا!، وكانت أمه تشعر ببعض العجب حين تسمع اسمها..

إنه يغمرها بحب .. وكأنه يخبرها ألا تبكي..

ثم يسحبها من يدها.. هذه المرة حاولت أن تقاوم على غير العادة..إلا أنه يصر.. ويضاعف الإصرار إصرارًا، ويجرها ويشدها .

الأم: إني لا أستطيع الخروج.

ثم تنحني على ركبتيها ... ماسكة كتفي ابنها..

الأم: لا أستطيع أن أواجه الناس هكذا، وتشير إلى وجهها..

فيرمقها، وكأنه يقول لا تأبهي..إنه جميل جدًا كما اعتدُته..كانت عيناه مفعمتان بالبريق.. وكان قلبه يزمجر خفقانًا..إنه لا يدري..ما المصطلح المناسب لشعوره..إنه يشعر بالإجلال العظيم لأمه.. فيشدها من يدها ويخرجان.

هناك! وكأن المترل عالم مهجور.. قصر أشباح.. ظلام حالك رغم النور.. انعدام الأكسجين رغم القدرة على التنفس.. كأن الموت في الداخل كان يقبع والكآبة على الجدران كانت مرسومة.. وكأن العالم الملون بالأسود والأبيض تغير عقب مرورهم من الخط السحري وتزركش ثانية.. وتداعب الشمس وجنتيها ويلعب الهواء بشعرها .. فتنفرج أساريرها وتضحك ..

النقلة النوعية بين الظلام والنور.. إنها نقلة تاريخية تستغرق سنوات! حسب انغماسك ، ولكنها لم تكن بالنسبة لهم سوى تخطي العتبة العملاقة..

أخذ يسترق النظر إلى ابتسامة أمه ووجهها المتورد إثر البكاء، وعينيها الحمراوين ..

اليأس! إنه يجلب الحزن بالتأكيد.

ما معنى أن تكون يائسًا؟

أبي يائس.. أمي لم تفكر أن تتحدث حتى؛ فقد علمت أن محمود يفضل الهدوء ..

ومن تفاصيل الطريق خمنت المكان المقصود..

يائس.. أعادت روحه الكلمة مرات، وأعادت الكرة آلافًا إنها تشعر بالاشمئزاز، وكأنها ترفض أن تحلل وقع الكلمة!

لِما وقع شنيع .. مِـــمَّ يئس والده؟

من قدرته على الكلام ؟!

إذًا فاليأس مربوط بالاستسلام أيضًا! نفاد الصبر..الحزن.. الدموع..

اليأس تلخيص تداخل المشاعر معًا ..

يتضخم وقعها .. هذا ما كان يجول في خاطره!

لم يلاحظ تملصه من يد أمه.. ليضعها خلف رأسه.. في المسير وهي تراقبه بصمت..

إذًا ما الحزن مبدئيًّا؟ إنه سهل.. الحزن أن تشعر بقلبك يخفق بجنون..كما خفقانه في لحظة السعادة، ولكن هذه المرة تكون الضربات مؤلمة..

دموعنا تحاول بشتى الوسائل أن تخفف الألم!

الحزن.. تلك القشعريرات المتتالية..انتفاضة الجسد.. وكأنه على سرير الموت .. يصارع للبقاء!

وقع الأحداث بالقلب..كـــتحريك له لكن ليس بالطريقة اللطيفة.. وإنما بأشنع طرق.. إيقاظ المشاعر وتحريكها ..

يهمس في أذن نفسه أجل هذا هو الحزن..أمي حزينة .. إن الحزن هو فطر القلب ..

والاستسلام.. منطقيًا ليس شعورًا.. فالاستسلام ردة فعل عن اليأس! بالتالي الاستسلام..هو ما يصدر عنا من التخلي عن الشيء .. من التوقف عن المحاولة.. من ترك الأمور على ماهيتها.. والفتور والتقاعس عن عمل المزيد.. نتيجة تفكيرنا السلبي.. إنها لن تتغير ولكن يمكن أن ينتج عن ردة الفعل.. امتزاج جزء من شعور بالاستسلام! ولكنه بالنهاية ما هو إلا ردة فعل عن ردة فعل!.

يفتح عينيه قليلًا ردة فعل .. لـــردة فعل.. وهل لـــردود الفعل.. ردات فعل! كان الجواب معقولًا..أجل.. ولكن بالتالي فإن ردة الفعل لـــردة الفعل.. هي الفعل نفسه! منطقيًا.. لا بد أن ننظر إليها.. من منظور آخر، من جهة أخرى لـــرؤية الأمور.. سنجد أن لردات الفعل ردود تختلف عن الفعل ذاته..، هذا ما توصل إليه من عملية تفكير كاد أن يصرخ لأفكاره جرّاءها: اصمتي قليلًا أريد التركيز.. ثم تخيّل الفكرة التي طرحها لنفسه..الرؤية من جهة أخرى.. من منظور آخر.. فتخيل وقوفه فوق قمة مرتفعة اقشعر بدنه لـــلحظة.. أراد أن تسمع الكرة الأرضية صرخات استنجاده .. أخذ جسده بالتثاقل على

الأرض الصلبة.. التي بات يشعر أنها ليست كذلك بعد الآن..
سيهوي عن الجبل قريبًا.. تتصب بضع نقاط عرق على الطريق..
تنظر أمه.. ما زالت لا تتجرّأ على مقاطعة سلسلة أفكاره.. ثم يتذكّر
مبدأ المنظور الآخر.. أجل المنظور الآخر.. يستعيد هدوءه تدريجيًّا..
ويهمس في روحه مجددًا أنا لن أنظر إلى الأسفل.. سأنظر في الأفق
لأشاهد الأشجار.. إنها تودّع الشمس.. ويفكّر قليلًا بدفئها ويتذكر
أنه لا يحب البرد.. ثم يكمل:

إذًا فردة الفعل الناتجة عن وقوفي على الجبل الخوف، وبالتالي
السقوط، وردة الفعل عن السقوط الموت، ولكن إن نظرت من
المنظور الآخر الفعل ثابت ردات الفعل متغيرة.. فالاستسلام.. يمكن
أن يكون جزءًا من شعور.. وليس شعورًا قائمًا بحد ذاته!

يستشعر أنه خاض في بعضٍ من ضجيج!

وأن الجنون امتزج في أركان الكلمات..بدأ يستعيد هدوءه،
ويتذكر البدايات.. يردد في قلبه العبارات..

محمود: اليأس.. امتزاج المشاعر.. الحزن والغضب بالدموع..
السوداوية.. ردة الفعل الناتجة عنه الاستسلام.. اليأس! إذًا.. كأن
تنظر إلى السماء في منتصف النهار، ولا ترى سوى الحُلْكة تلاحقك
في كل مكان ..

اليأس.. هو فقدان الإيمان بكل التفاصيل الدالة على السعادة.. هو أن تخوض في حالة عدم التصديق..البعد عن الإيمان.. واللا منطق.. أن ترى كل الأمور من منظور السقوط عن الجبل.. وأن تتحول نظرتك إلى الحياة بلا ألوان..اليأس يدفعك إلى عدم المحاولة أي الاستسلام منطقيًّا.. كما أنه يدفعك بعيدًا عن الاستمتاع.

ثم نظر إلى عيني أمه، وأخذ نفسًا عميقًا كأنه يثبت كيانه على الأرض، ويستشعر صلابتها من جديد، واستكمل مفكرًا:

إنهم قريبون الآن من المكان المنشود.. الفتور المطلق لكل شيء.. فتور المشاعر.. يؤدي إلى فتور العقل والعضلات.. اليأس..ليس دقّات.. إنه متأكد من أن اليأس ليس دقّات، ولا قرعات..لا شيء.. إنه الموت البارد للمشاعر.. على حطب اللاشيء.. تتوقف الرعشات..تتوقف الأحوال.. يتوقف كل شيء..الأنفاس.. تتلاشى.. اليأس .. أول خطوة في الطريق إلى الجحيم.. إلى الهاوية.. يشعر بشيء من البراد في أركانه.. في أطرافه.. ويتذكر يديه اللتين تفاجأ بوجودهما خلف رأسه.. فأدرك تملصه من يدي أمه.. يستعيد الوضع الطبيعي.قبل الدخول من البوابة الشجرية للمكان المنشود.. فيُمسك بيد أمه، ويبتسم.. يشير لها أن تبقى بهدوء،ويدخل المكان وكأنه دخل المكان المقدس، ووطأت قدمه إحدى دور العبادة.

تتلألأ عيناه، وتنتشي الأم مبتسمة، ويدخلان الفسحة المسورة بالأشجار الشاهقة.. الشمس تتسلل لها بخجل، تمعن والدته النظر

كأنها تنتظر منه أن يستلقي كـــعادته..لتتأمله..ولكنها تشعر به يمسك يدها فجأة، ويشدها لـــشجرته المميزة، وتمتزج عيناه ببريق عينيها... كأنه رجاء أن تحذو حذوه.. فيقفز ويستلقي واضعًا يديه تحت رأسه كالعادة، ويغلق عينيه.. ترضخ للأمر الواقع، وتترك فرصة تأمله لتغمض عينيها،ويعم الهدوء قرابة الخمس عشرة دقيقة.. يأخذ محمود نفسًا دوى صداه في الأرجاء.. لكنها لا تستطيع فتح عينيها ليس لأن النوم أخذها في جولة أحلامٍ، ولكن لأن الهدوء جعلها تشعر بشيء من السلام النفسي، والسكينة.

أصغت السمع فقط لصوت أنفاسه التي استغربت لوهلة سبب علوها، وأرجحت أن السبب هو خلو المكان.. أو رابطة أمومية من نوعٍ ما.. شهيق طويل وزفير ارتياح.. بانتظام.. كدقات الساعة.. توك توك.. إلا أن الشهيق الأخير.. ضاعت زفراته عن مسامعها.. أحست بشيء من التوتر لغياب الزفرة.. لعودة الهدوء.. أحست بنبضاها.. كأن كل الطقوس .. كانت بداية القادم من كل شيء .. همس محمود بتلبك:

- أخائفةٌ أنتِ؟

لم تستطع تمالك نفسها.. آلاف الأفكار هاجمتها في الظلام.. ونور واحد أضاء، إلا أنه خافت حد الاختفاء.. هل اختطفه أحدهم؟ هل هو بخير؟ هل هناك غيرنا؟ أم هل هذا صوته هو؟!

تفتح عينيها بشيء من الهلع.. لتجول في المكان.. تغمره بنظراتها.. لا يزال متمددًا ها هنا..لا شيء تغير..والسكون المقيت عاد، وأخذت تفكر.. وكان إيمانًا أكثر منه فكرة.. هل سَمِعتْ صوت أحدهم؟ إنها لا تهذي.. واثقةٌ هي أنها لا تهلوس ..

تُطيل النظرِ إليه هذه المرة.. شيء من التلبك يخوض في أركانها، نظراتها دلت حركة بؤبؤ عينيها..كأنها رجاء أن يفسر ما الذي حدث؟!

لم يستطع أن يحمل نفسه أكثر من ذلك على رؤية نظرة الهلع في عينيها.. لم يتمكن رغم أنه لم ينظر لهما.. إلا أنه أحس برعشات كيانها على الأرض الصلبة.. كانت على فاصل لحظة من الهستيريا.. لم تعد بحاجتها بعد أن سمعت ما سمعت..

- أخائفة أنت؟!

الهذيان .. وما أدراك ما الهذيان! كل الحالات التي وصف بها.. عجزت عن وصفها اليوم.. الهذيان.. امتزاج الدموع بالجنون.. الهوس المطلق للهستيريا.. الصدمة الممزوجة بابتسامة! شيء من النصر إنه الجنون!

تمسك قلبها، وهي تنظر إليه لم تعد تراه جيدًا الدموع تبدد الرؤية الواضحة، وهي تزيحها.. اليوم تريد رؤيته أوضح من السابق! تريد أن تراه جيدًا، وتغمره بقوة فيعتصر.. لا بأس بتبدّده داخل ذراعيها.. لا

تأبه إن عاد إلى رحمها.. كل ما تريد أن تحصل على عناق مطول... تخبره به تلك الرجفات الممتدة في ذراعيها.. عن مقدار فرحتها، عن مقدار عشقها!

وتكمل الدموع المجنونة الطريق.. إلى العشب المكلّل بالخضرة!

محمود: يا إلهي .. يبدو أني سأعيد الكلام كثيرًا!

تنظر إلى عينيه.. تقترب لتلاصقهما.. تنظر بدموعها.. مع إمالة رأسها.. مع بريق الأمل.. فيشعر أن اليوم هو تبادل أدوار.. أن أمه هي الطفلة اليوم.. هي التي تحتاج العناية، والحضن اليوم لها لا منها.. فيحتضنها بجنون!

لا يدرك أنه جُنَّ وأخذ يعصرها! لم يعرف كيف له أن يكون مجنونًا أو أن يدخل في لا وعي التصرف! لطالما عرف أنه راجح! لربما تراقص عينيها.. أنساه العقل كله.. يضمها بقوة.. يهتز كيانه.. يربّت على كتفها.. تتثاقل الحروف أمام دموعها، ويتثاقل الحرف أمام جنونه..

اللهيب الصادر عن القلوب العاشقة لهو أقوى من لهيب الشمس.. حرارته ترتفع، وعيناها تهدآن يسود الإحساس الجو.. بلا كلام، ولا حروف.

هذه اللحظة أدركت أمه أنها على حق .. الكلام لا يعني شيئًا!

إنها المشاعر.. الأحاسيس هي التي تكون الإنسان ..

وهو تناسى منطق التفسيرات لدرجة أنه لم يستشعر نبضات قلبه.. لم يلحظ تغيرها.. لم يسمع لحن خلودها، ولا تحذيراتها من الشذوذ عن النوتة.. كان فقط يثبت أركانه في كيان أمه.. في العناق.. لا داعي للنظرات حتى.. تُلغى كل طرق الحديث ليسمع الطرفان دقات القلوب.. إنه حوار المشاعر بصمت مُطلق..يمسح على خصلات شعر تلك التي بين ذراعيه.. اختفى صوتها! أحس لفترة أنه كبر كثيرًا! أنه كبر ولربما شاخ في العناق.. كأنه يتقدم مع كل ثانية بضع سنين.. تصغر فيها أمه!

وهمس ولكن هذه المرة بصوت مهدّج .. تائه! تمنى أن يعثر على أجزائه في بقايا جسد الطفلة بين ذراعيه..

محمود: ألا تزالين خائفة؟!، ويمسح على وجهها ..

لقد تعبت من أخذ الأنفاس حتى.. تهز رأسها نفيًا.. تمسح الدموع، وتجلس تتأمله.. ذلك الذين شب بين حين وحين!

وكأن البلوغ والنقلة بين الطفولة، والشباب.. موقف واحد!

يجعلك تخطو خطوة للأمام أو لربما خطوتين معًا!

محمود انتهى الأمر الآن.. لا تستطيعين العودة إلى هدوئك المسبق فورًا .. لنقم ببعض اليوغا ونرحل!

الأم: حدثني! تكلم كثيرًا، لا تصمُت.

محمود: أحب الهدوء..

الأم: سأهدأ!

محمود: ليس هذا ما عنيته، نظراتي تجعل التواصل أسهل..

الأم: أتؤمن بذلك؟ أم تكذب على نفسك!

محمود: لو لم أؤمن به .. لما سرت على هذه الخُطا..

الأم: لم بقيت صامتًا إلى الآن؟

محمود: أخبرتك.. أفضل الهدوء.

لم يستطع أن يُبقي دقات قلبه في معدل السخونة ليتكلم معها بحرارة أكبر.. بل صوته يحوي من الحكمة والوقار الكثير.. يحوي من البرود الكثير..

تأخذ نفسًا عميقًا، وتصمت صمتًا طويلًا.. يُدرك من خلال الصمت، ونظرات العيون.. أن آلاف الأسئلة تدور في ذهنها..

محمود: سأجيبك! لليومِ فقط! ولكني لن أتكلم بعدها! هذا أولًا.. ثانيًا.. لا أريد لأبي أن يعلم أي شيء عن الأمر..

ثم ينظر برفعة حاجب .. مستفسرًا عن رأيها!

تنظر في عينه لترى الثقة، والإصرار.. فتهز رأسها إيجابًا أمام جلجلة إصراره ..

الأم: إني في حالة تشتت.. لا أسئلة لديَّ، ولكني في قمة الضياع..

محمود: الضياع.. إني أعرف .. لقد تحدثت لأول مرة عندما كان عمري 8 شهور.. أحسست بالصوت المميز لأول مرة! كانت أولى الكلمات لم.

الأم: كل هذه الفترة بقيت صامتًا؟

محمود: في الروضة تحدثت مرتين مع ماريا ..

الأم: إذًا لِمَ؟ لَمَ لَمْ تتحدث معنا.

محمود: لا شيء شخصيًّا.. لربما لم أجد الوقت المناسب!

الأم: وهل يحتاج وقتًا.

محمود: كل شيء يحتاج وقتًا مناسبًا، ولربما لأني فضلت الهدوء..

تنظر بعمق.. تسحب أنفاسها مناشدة ذرات الأكسجين أن تدخل فقد بدأت تشعر بشيء من الاختناق..

محمود لا داعي لأن تكوني حزينة.. سأُكلّمك كل حين، وحين.. في الوقت المناسب..سأسرق الصباحات منك، وستبتسمين سرًّا حينها أمام عادل.. سنعيش سرنا الصغير فترة..

تطلق ابتسامة تلتها ضحكة خفيفة ..

الأم: أنت جيد في العبث بالعقل..

ينفض عن نفس بقايا العشب، ينظر إليها.. كأنه يعود لوضعه الطبيعي..الوضع الصامت، وتحكي عيناه مع يده الممتدة مطالبًا إياها أن تأتي معه!

فتنهض ليلعب الهواء بتنورتها الرقيقة، وتشوب الحمرة وجهها ..

يخرجان من الفسحة الشجرية إلى الطريق.. كان الطريق مقتصرًا علي الصمت المطلق، وبعض الأفكار تغوص في رأس كل منهما ..

الأم: لربما كان شعور الأم من البداية،ولربما.. كان مجرد ملاحظة لعبقرية غامضة. لكن ذلك القدر من الحكمة الذي يشوب صوته يجب إخفاؤه حتى يبقى عظيمًا..سيتحدث يومًا ما أمام الجميع سأنتظر ذلك اليوم، ولكن يا ترى فيما يفكر؟

محمود:ذلك الشعور باحتواء أحدهم.. يجعلك تكبر لتشعر بالمسؤولية..لتشعر برسوخ كيانك، ولربما كان الكيان تائهًا في حضرة رسوخ كيان الآخر، وجنون الدقّات.. كم من السهل أن تعود المرأة طفلة .. أمي مثلًا! لا تزال طفلة ..

يقتربان من البيت وكل منهما يراجع ما حدث اليوم ليجمع شتات أفكاره المنطلقة في المكان!

اليأس.. تذكّر محمود أن اليأس يعيش بين ثنايا وطيات هذا البيت!

تُفتَح الأبواب، ويدخلان.. ليتفاجآ بعودة الألوان.

لم يعد الحزن والغضب يعمان المكان..هل استغلّت جدران المترل.. لحظات خلوه في استعادة هدوئها..بالطبع لا..بالطبع لم يتسرب اليأس ليخرج من أعتاب الباب!

البيوت هي نحن..الجدران،والأروقة.. اللوحات الموزعة هنا، وهناك.. كل الأثاث، والتحف.. كل شيء هو نحن! مشاعرنا.. هي التي تولد كل شيء ليكبر حجم الأشياء.. أو يصغر.. نحن من نرسم التفاصيل! إنها لا تعتبر عدوى،ولا تتأثّر! إنها تشارك الحالة فقط.. عند الغضب، والهدوء.. الحزن، والفرح، اليأس،والأمل كل شعور ينعكس على عينيك.. لترى الأشياء من منظور الشعور الخاص.. أجل هذا هو التفسير ..

الشعور كالمرايا.. تعكس التصرفات.. تعكس الأشياء.. نعتقد أننا فهمناها بالطريقة الصائبة، ولكننا ننسى أن الأجسام مقلوبة على المرآة!

الأم: محمود .. محمووورد .. محمود ..

يلتفت بسرعة ليرى ماذا هناك.. ونظرات عينيه تخبرها أنه كان شاردًا غارقًا في التفكير ..

الأم: لا هلع .. اغسل يديك .. وحضّر نفسك للغداء ..

يصعد الدَرَج ، وللحظة تذكر تثاقل قدميه السابق ..

غسل يديه، وتناول الغداء، وخلد للنوم.. لم يكن هربًا .. بل كان تعبًا..

لقد تَحمّل أكثر مما يتوقع من أثر المشاعر.. لقد وصل إلى استكشافات عظيمة لكثير من الأمور التي كان يحاول قدر المستطاع أن يسير على نهج منطقي في فهمها.. لتوقظه هذه الأمور في ساعة متأخرة من الليل ..

يجلس في سريره مفكرًا بها!

يسترجع أحداث البارحة، وقراره أن يكتب كتابًا! فلِمَ؟ لِمَ لا؟

يكون هذا الكتاب يتحدث عن هذه المشاعر..عن قوتها.. عن ماهيتها!عنها بحذافيرها.. أمسك أوراقه، وأخذ يدوّن المعلومات التي استحضرها، وقرّر أن يكتبها مفصلًا في الغد، وعاد لينام ساعة تقريبًا قبل أن تأتي أمه لتوقظه معلنةً بدء يوم جديد!

ولجميع الأطفال شمس صباح يبدؤون بها نهارهم.. إلا محمود.. لا يحل صباحه إلا بصوت أمه!

فتح عينيه على الماسية صوتها، وأخذ نفسًا عميقًا..كأنه يجس نبض ردة فعلها .. إلا أنها كانت كما العادة لم تتغير عنه إنشًا..

الأم: هيا ارتدِ ثيابك.. الفطور مُعدٌّ..

أومأ برأسه ونهض ليجهز نفسه ..

كان صباحًا عاديًّا فوق تصوره.. خرج من المترل مع حقيبة ظهره ليجد غيّاث في منتصف الطريق..

يكملان معًا إلى المدرسة ..

ينظر غيّاث إلى محمود، ويبتسم .. فيبادره محمود.. بنظرة.. ماذا هناك؟

يخرج الكتاب من حقيبته .. لقد كان مسليًا .

تتسع حدقتا محمود.. أحقًا قرأ غيّاث الكتاب كله رغم أنه لم يقرأ من قبل؟!

غيّاث: لقد قضيت البارحة في القراءة.. كان عليّ أن أدرّب نفسي..

ربت محمد على كتفه وأخذ ينثر سواد الليل على رأسه .. وعيناه تغنيان.. ولد جيد

يصلان إلى المدرسة أحد الأيام العادية .. لكن اليوم يتعجّب غيّاث أن محمود غارق في الكتابة.. لا القراءة .

غيّاث: ماذا تكتب؟

نظر محمود .. ثم أومأ له أن تعالَ ..

ألقى غيّاث نظرة.. إنه كتاب!

غيّاث: ماذا؟ كتاب؟

محمود هز رأسه إيجابًا.. مغلقًا عينيه.. إنه طابع لطيف.. تميّز به محمود.. ساعة إغلاق عينيه الفضيتين ..

يجلس غيّاث بصمت، ومحمود يدوّن بتفصيلات أكثر ما ورد معه من استنتاجات في حياته!

إنها تبدو رائعة..تعجبه الكلمات.. تنسيقها، يطلق ابتسامة صغيرة

كأنها شيء من النصر.. لربما إنها إشارة بدء المعركة..

أن تغرق في الكتابة ليس بالأمر السهل.. نسبيًّا.. ستُصبح ملجأك الوحيد.. في الحزن، والفرح، والغضب.. ستعشقها حد الموت حد كل الحدود وبها تُلغى الحدود أيضًا..

يكمل محمود نهايات العام يفكر في كتابه، ويكتب، ويدون، وينتهي العام بشمس حارقة ببضع زهور في الطريق..

بلا كلمات.. بلا حروف، ويأتي الصيف الذي لا يخرج فيه محمود من غرفته إلا نادرًا ، والأم تستغرب.. إنهما شهران، ولا يزال مدللها لم يطأ عتب الباب .

تقرع باب غرفته!

الأم: هل لي ..

يشير برأسه.. أن تدخل .

الأم: ما بالك؟ أنت لست على ما يُرام ..

يشير ألا شيء يذكر..

تمعن النظر في عينه ..

الأم: متأكد؟!

ينظر في عينها ويجوووووول الكلام في الغرفة

لغة العيون أقوى من الصوت.. عيناه وعيناها تتكلم..

محمود :أبحث عني في المستقبل..

الأم: جمييل

محمود: لربما ..

الأم: ألا تعتقد ذلك؟

تتراح عيناه عن الطريق، ويقطع سلسلة الحديث بإغلاق أبواب عينيه أمام أمه.. ترفع نفسها عن السرير .. لتنطلق إلى الخارج!

محمود: سأنطلق لأعمل!

تقف متسمرة في منتصف الطريق.. لا تدري أهي دعابة أم ماذا؟ هل جُنَّ ابنها؟

تلتفت ببطء وعلامات الذهول تعتري وجهها.. العينان المصدومتان اللتان حاولت عينا محمود أن تهديء من روعهما، ولكن لا جدوى.. شفتاها اللتان فُتحتا قليلًا، وإشارات الاستفهام ملأت وجهها! نظرت له بذهول ..

تريد أن تناقشه، ولكن طرق عادل للباب تناهى إلى مسامعها ..

الأم: محمود .. لا تتأخر على الغداء..وتنزل الدرج..

الأم: عزيزي، وتعطيه القبلة ثم تحمل حقيبته وتساعده في خلع سترته..

الأم: الغداء جاهز .. لا تتأخر ..

الأب: سأحضر سريعًا.. ويبدأ بفتح أزرار قميصه..

في حين يغسل محمود يديه وينزل إلى المطبخ!

تناول طعام الغداء وانصرف ..

نظراته اليوم لم تحكِ أي معلومة جديدة! لا شيء أبدًا!

استغرب عادل وأشار إلى بانة .. ما به؟

ترفع كتفيها، وتهمس بخفوت.. لا أدري ..

تغرق في عينيها دمعة!.. لا يمكنها أن تخبر عادل بشيء فأكيد لن تقول النظرات كلمات محمود الثقيلة!

إنها اليوم خالية من الحكمة، ولربما الحكمة بنظره تختلف عن الحكمة في نظرها..

تقرع الباب لا يبادلها القرع.. تهمس له.. لا بالطبع لا توجد همسات..

تفكر ان تقتحم خلوته لتناقش! لكن لا يمكنها.. أن تقتحم هدوءه يكتب أكثر.. يبتسم حينًا، وفي حين آخر يعبس.. أو يقوس حاجبيه..

ينهي تلك الواجبات الطفيفة، ويخلد إلى النوم!

ينام بعمق.. غدًا سيودّع أيامه الأخيرة للمدرسة الابتدائية، ويبدأ صيف العمل الشاق على كلمات كتابه.. لا بد أن يجد عملًا جيدًا أيضًا..

استيقظ اليوم بلا صوت أمه.. المنبه فحسب.. شعر بكآبة تتخلّل صباحه ..

طرد الفكر من رأسه، ونهض سريعًا دون تقاعس ارتدى بنطاله، وسترته، وسار إلى الأسفل.. علّه يتناول طعام الفطور..لا أحد المنزل خالٍ..

تنهد بعمق! أين رحلت في الصباح الباكر؟!،وأين عادل، وجريدته الصباحية؟!

نظر بشيء من التعجب إلى الردهة الفارغة، والمنزل الخاوي ..

لم يستسغ الجلوس على المنضدة لـيتناول الطعام وحيدًا.. رفع حقيبته، وانطلق إلى الطريق.. علّه يجد من الهواء ما يكفي لـيريح أعصابه!

أخذ يتنفس بهدوء شديد،ويتأمل السماء الصباحية التي انعدم الإثم عن شمسها.. لا تزال طاهرة! بلا ذنوب!

يصل إلى المفترق حيث يقف غيّاث، ويسيران معًا!

غيّاث اليوم لديه الكثير من الأفكار.. فآخر أعوام الابتدائية ستولي، وسيكبران.. ليدخلا مدرسة إعدادية ببنطال كحلي اللون، وقميص أزرق، ويكتبان كما يشاءان بأقلام الحبر الملونة!

وسيلعبان الكرة مع طلاب الصف التاسع! ياااااه المدرسة الإعدادية رائعة!

يحب غيّاث المدرسة الإعدادية ..

ثم فكّر أنه في المدرسة الإعدادية سيكون الطعام في فترة الغداء أفضل بقليل وسيُسمح لهم بتناول الحلوى. ولربما يحتسون القهوة أيضًا كل هذه الفكر.. لم يعد يريد غيّاث أن يحل الصيف..بل إنه يريد أن ينتقل إلى الإعدادية حالًا ..

محمود أيضا كان غارقًا في فكرة صباحه المشوه.. كيف له أن يبدأ يومًا طبيعيًا بلا ابتسامة والدته! كيف له أن يتخلص من هذه العادة؟!

أولئك الذين نعشقهم، لربما لا يتفهمون قراراتنا، ولكن ردة أفعالهم.. بالنسبة لهم أمر عادي.. بالنسبة لنا .. إنها جارحة!

كان محمود قرر أن تكون أمه القديسة ومخزن السر الوحيد لأنها ستكون بجانبه دائمًا..

هذا ما توقعه..

إلى أن جاء الصباح الذي لم توقظه فيه.. شعر بالوحدة المقفرة!

غيّاث هيي.. محمود.. ما بالك؟ لم تخبرني أي المدارس الإعدادية ستر تاد ..

نظر محمود إلى غيّاث بنظرة .. ما هذا السؤال؟

فبالطبع محمود سيختار المدرسة الأفضل والتي هي البعيدة..

يطرق غيّاث برأسه ..

غيّاث: أبي قال إن عليَّ ارتياد المدرسة القريبة! ففي النهاية كلاهما متشابهتان ..

قطب محمود حاجبيه: متشابهتان؟

أراد أن يصرخ بوجه غيّاث مؤنبًا..كيف له أن يتفوه بهذه الكلمات؟! أيصدق تلك الجمل الركيكة التي حيكت لإقناعه!

أراد أن يخبره.. لا تكن مجنونًا.. إنهم لا يعرفون شيئًا.. الأفضل يبقى أفضل لسبب ما! بضع خطوات لن تؤثر.. الاستيقاظ مسبقا ببضع دقائق.. لا يعني شيئًا! لو كانتا متشابهتين لما كان هناك داعٍ للمقارنة!

في النهاية الطالب الجد يعمل بجهد.. لكن حين يكون المعلم مُتقاعسًا الطالب لن يكون بذات الجدية.. إحداهما.. تجعلك تتخطى

الحدود التي رسمتها لـــنفسك.. والأخرى تجعلك ترسم تلك الحدود وتبقى ما دونها!

لكنه اكتفى برمقه بنظرة استغراب.. بنظرة فكر في ذلك!

إن بدايات الخيارات تؤثر كثيرًا.. لا يمكنك القول إنك لا تزال طفلًا، ولا يجب عليك اتخاذ القرارات الآن.. فالقرار الخاطئ المبكر .. سيكبر، وينمو معك!

فمثلًا اختيار المدرسة الأفضل يجب أن يكون في الثانوية! ولكن إن كان بناؤك الأساسي في الإعدادية.. خاطئًا أو ضعيفًا.. فلن تتمكن من عيش مرحلة ثانوية قوية! وبالتالي فحياتك الجامعية.. ستتخذ المنحى نفسه!

ذو الأسس القوية.. يبقى قويًا.. ذو الأسس الضعيفة حتى لو اختار القوة.. سيبقى ضعيفًا.. إلا إن ضاعف العمل، والقواعد دومًا لها شواذ!

هذه الجملة هي أكثر ما يؤمن به محمود..لكل شيء قاعدة، ولكل قاعدة شواذ!

وصلا إلى المدرسة والصمت سائد بينهما.. نسي محمود.. صباحه...يفكر كم هم الأهل.. لا يدرون شيئًا! وكم غيّاث أحمق حتى يصدق! ثم يتنهد متذكّرًا.. أنه مجرد طفل.. لا حيلة له في عالم الكبار ..

ويسلم الفكرة للانتظار، ويلتفت لكلام المعلمين عن الوداع، ولحظات الشوق، والفرح، والخلافات التي قضوها في المدرسة عن الأسرة الواحدة.. إنه الكلام المعتاد ..

شك محمود أنهم كتبوا الكلمات مرة منذ آلاف السنين، وفي النهاية أصبحت الإرث المدرسي، وعلى المعلمين أن يقولها في كل نهاية عام ..

تذكّر ماريا! كانت ذكية، وخطر في باله أن يمر ليلقي التحية.. الكلام أصبح مشوّشًا.. لربما لأنه خاض قليلًا في بضع فكر أخرى!

يقرع الجرس،ومحمود في مكانه يدخل إلى فكرة ويخرج من أخرى!

غيّاث: محمود .. محمود..

ينظر إليه بعمق يحمل كتبه، ويترجّل!

يطرق غيّاث النظر .. إنه ليس على ما يُرام!

غيّاث: إلى أين؟

ينظر إليه محمود ..

لربما أراد أن يقولها بشغف:إنه راحل إلى البعيد إلى اللامكان حيث يجد نفسه .. بعيدًا عن أفكار الآخرين الملوّثة ..

لكنه اكتفى بنظرة مطمئنة.. أدخلت السكينة إلى قلب غيّاث، وانطلقا .

لكن محمود.. ترك غيّاث في منتصف الطريق، وترجّل إلى رياض الأطفال ليرى ماريا!

جالتَ نظراته في المكان! لا ماريا هنا؟

خط للمديرة على إحدى أوراقها! أين ماريا؟

نظرت له بحزن.. فماريا غادرت الرياض منذ شهر تقريبًا!

جمدت نظرات محمود.. شعر بشيء من خيبة الأمل.. الحزن.. فتح فاه.. هز برأسه هزّات متتابعة! وجرته قدماه إلى الخارج ..

مع شيء من الأسئلة .. لِمَ؟ لِمَ؟ لم تخبره ماريا عن ذهابها ..

لم آثرت الخروج كأنها لم تكن؟! لم قررت الاختفاء؟!

غيّاث كان قريبًا من الرياض.. لقد رأى صدمة محمود.. صدمة كبيرة!

أراد أن يسأله.. ما بك؟ إلا أنه رأى عينيه بلا بريق.. رأى عيني محمود اللتين لم يكن لأحد أن يراهما في التاريخ.. العينين اللتين لا يمكن تفسير نظراتهما !

آثر غيّاث عدم الاقتراب!

في حين قرر محمود الجلوس تحت شجرته المعتادة!

ماريا : أنت كما أنت.. لكنك حزين اليوم..

نظر إليها بعينيه الباردتين.. كـــسفاح متعطش للدماء ..

تمسك قلبها.. فنظراته مخيفة.. إنها تقطر شيئًا من السواد..لا تحمد تلك النظرة! إنه لا يشعر بشيء

ماريا: محمودا! .. لقد توقعت مجيئك! لذلك أتيت..

يرن الصوت بأذنيه.. يرفع عينيه.. يعود لها بريقها.. مع حركة حاجبيه.. تبتسم ماريا.. بلطف..

ماريا: ما بالك لا تبدو بخير؟!

ينظر لها مذكّرًا إياها بحبه للهدوء واللا كلام!

ينتشل ذرات الأكسجين من الهواء، وكأنها حبيبته، وهو يخطفها في ليلة ليلاء.. يحبس أنفاسه.. ثم يطلقها ينظر في عينها.. ثم يهمس..

محمود: سأبدأ رحلة البحث عن عمل بعد دقائق..

نظرت بدهشة متمتمة: عمل؟

هز رأسه هزة خفيفة مع إغلاق عينيه..

رفعت حاجبها استغرابًا.. ثم تراءت لها أيام محمود في الرياض..لا بد أن لديه دافعًا.. سببًا ما.. مقنع لربما!

ماريا: هل لي أن أعلم لِمَ؟

نظر لها.. إنه لم يخبر أمه بالسبب.. نهض.. نفض بقايا الأعشاب عن ثيابه.. نظر مودّعًا.. عيناه تقولان.. حان وقت الرحيل..نظرت له زمّت شفتيها، وحرّكت رأسها إيجابًا.. لوّح لها من البعيد وسار في الدرب وحيدًا.. يفكر، ويفكر.. لماذا يريد الذهاب للعمل!.. ما هذا السؤال الغريب؟ فبديهي لكي يكون ذاته.. ليكون ذا نفع في المجتمع فهو لم يعد طفلًا..الآن هو بالغ .. يبدأ برسم الطريق.. كما أن عليه أن يجمع بعض المال.. ليدرس دراساته الثانوية بنفسه.. لكي يكون هو نفسه لا سواه،ولا يحتاج لدعم أحد.. ثم فكّر أهي فكرة غريبة؟ رمى أوراق هذه الفكرة عن منضدة أفكاره! وهو يقرع أجراس المنزل.. قرعات متتالية.. لا أحد يجيب.. فتح الأبواب، ودخل المنزل..لا أحد هنا.. وضع حقيبته في مكانها..دخل الحمام..اغتسل..نظّف أسنانه .. لا يمكنه أن يأكل وحيدًا!.. لطالما فضّل الوحدة في كل شيء.. إلا وقت الطعام .. يجب أن يكون هناك شخص واحد يملأ فراغ صوت الطعام الشنيع..صوت مضغاته..يغمض عينيه..يشعر بالجوع.. ومعدته تضطرب.. تناول بعضًا من الطعام في ثلاجته! أكل سريعًا.. ارتدى حذاءه وترجّل خارجًا !

وكأن العالم انتهى والبشر انقرضوا.. لا أحد! يشق طريقه.. ناويًا البحث عن عمل، وهو في باله المكان المناسب..يدق باب إحدى المكتبات!

العجوز القابع في ركن تغطيه ذرات الغبار، وبصوت مرتجف..بلا أنوار ..

العجوز: من هناك؟

يظهر محمود..فقد جاء إلى هنا حين كان طفلًا ليشتري بضعة كتب!

ابتسم محمود..

تعود ذاكرة العجوز بضع سنوات لربما لقلة الوجوه التي يراها سنويًّا.

تذكّر وجهه .. الطفل .. الذي اشترى الكتب الغريبة!

العجوز: ما الذي تريده يا بني؟

خط محمود على إحدى الأوراق: أريد العمل هنا..

وضع العجوز نظاراته بيدين راجفتين، ولكنه ابتسم حين قرأ الجملة!

العجوز: ماذا ستفعل ها هنا؟

خط محمود على الورقة ذاتها: أنظف الغُبار عن الكتب..

ثم نظر إلى العجوز، ورفع حاجبه.. كتب ثانية سأساعدك لنعيد إحياء القراءة.. على ثورة العلم أن تبدأ من مكتبتك!

ابتسم العجوز المدعو سالم في وجه محمود فقد شعر أن ذلك الملاك الذي كان ينتظر نزوله من السماء لـــيساعده، إنه على الأرض الآن!

نظر إلى محمود مطولًا ...

العجوز: ألا مدرسة لديك؟!

نظر محمود تلك النظرة التي يرتفع فيها حاجباه وتتجه مقلتاه إلى جانب الشخص المتحدث.. مبينة أن المعلومة التي ستقال بديهية!

ثم كَتَبَ: اليوم كان آخر أيام العام..

قهقه العجوز.. لربما من فكرة خطرت في باله.. كم لبث ها هنا؟!

كم لبث بين أكوام الكتب بعيدًا عن البشر؟! يحمل أشلاء جسده المتبقية..

العجوز: لنبدأ من الغد، وستنظف يوميًا فللمكتبة جناح غربي، وآخر شرقي،ولكل منهما العديد من الرفوف، المكتبة تحوي ما يقارب 1000 رف أو 1200 لا أدري.. لا يمكنني حصر عدد الكتب .. أيضًا لأن اختلاف الأحجام يحول دون ذلك ..

يهز رأسه إيجابًا..بنظرة واحدة.. قدّر محمود أن في المكتبة أكثر من 14000 كتابٍ..

الغد جيد بالنسبة لمحمود فلا يمكنه أن يختفي عن البيت حتى المساء دون علم والدته..

لديه الكثير من العمل الآن .. عليه ترتيب الكتب أبجديًا ووضعها في مكانها مع قوائم بالأسماء وترقيمها! إن ذلك سيستغرق وقتًا ..

دفع الباب مؤكدًا أنه سيعود في الغد ثم سار إلى المنزل مفكرًا إن عليه أن ينهي كتابة أفكاره ليتمكن من التفكير في أخرى منطقيًّا بلا قيود بلا خربشات ..

يصل إلى المنزل .. رائع أن الأنوار في الداخل مضاءة..

يرتقي الدرج.. لا أصوات في الداخل.. لا همسات لا صرير أبواب.. لا هواء لا شيء.. سكون بحت، ولكنه مقيت رغم حبه للسكون .

يفتح الأبواب .. يريد أن يصرخ: ماما، هل أنت هنا ؟ لكن شيئًا ما من داخله يمنعه!

ينظر في الأرجاء.. لا أصوات.. يدخل إلى المطبخ.. أمه قابعة هناك في الركن المظلم.. تحبس أنفاسها.. تحضن مجموعة من الكتب.. إنها الكتب التي حظي بها محمود عندما كان في الخامسة من عمره.. حين كان يرتاد الرياض.. ما بال هذه الكتب؟! ما بال أمه؟!

الأم: لِمَ عليك أن تعمل؟ أتريد شيئًا؟! أتريد المزيد من الكتب؟! سأحضرها لك.. كل ما تريد.. لا ترحل، وتتهوّر ..

ينظر محمود في الأرجاء .. عيناه تسألانها .. أين عادل؟

الأم: إنه نائم ..

محمود: إني سأعمل في ذات المكتبة !

الأم: لماذا؟ تصيح بجنون.. بصوت عالٍ.. يغلق محمود أُذنيه، ويجثو على قدميه.. إنه شيء من هستيريا الصوت.. لم يعتد تلك الأصوات التي تخترق الضجيج، وكأنها عاشت من الموت.. تركض لـــتحضنه ..

الأم: محمود، ما بكَ؟!

يرفع يدها بحنان .. لا يدري كيف جاء إليه ..

يهمس ..

محمود: العمل ليس للحاجة.. إني أعشق كوني بين الكتب.. سأتعرف عليها بشكل أوسع.. سأكون ذاتي لأكون أنا.. لأضع نفسي على أولى خطوات تأسيسي.. أمي.. سأكبر يومًا لن أستطيع أن أسر لك بكل شيء ..

تصمت.. تحبس النفس الذي كان عبارة عن شقهات متتالية!

تضع يدها على فمها.. لا تدري أهي صدمة؟! إنه على حق.. إن كلامه ما إن يخرج من فمه حتى يصمت الجميع.. أم أنها مانعةٌ كلمات الأمومة الواهية بالنسبة لكلامه من الخروَج!

ينتهي من تملصه من ذراعيها.. لقد أصابه صداع مؤلم عقب صرخاتها التي مزقت السكون الداخلي لروحه ..

يجلس أمام نافذة غرفته! يتأمل النجوم.. شهيق، وزفير.. أنفه، وفمه.. روحه.. جسده حركاته .. فكره كلها في تناغم ..

إنه تناغم السماء.. السماء التي يشعر أنه ينتمي إليها..رابطة وثيقة بينهما.. بين النجوم، والغيوم إنها السماء محبوبته ..

يعيد توازن نفسه.. يكمر نفسه بلحافه لينام .. تتقاذف الكلمات إلى رأسه.. يمسك قلمه .. لا يدري ما يكتب .. لا يدري ..

ليس حزنًا ولا يأسًا.. لا يشعر بالسعادة.. يضع يده على قلبه !

لا يشعر بالدقات .. يشعر باهتزاز مكبوت .. إنه ليس شعورًا جميلًا .. تهطل دمعة وحيدة ..

يكمر نفسه وينام .. بلا شيء .. بلا أفكار .. نوم كالموت!

***

يستيقظ في الصباح على زقزقة عصفور.. اقتحم فتحة نافذته !

ينظر إلى ورق الشجر والأزهار.. إنه لا يجد مشاعره فيها.. لا يجدها..

يرتدي سرواله ويتجه إلى المكتبة .. هناك.. حيث نسي كل شيء ليعيش السعادة القصوى.. حنان الكتب رائحتها..يخفق قلبه بسعادة..

يمسك بمنشفته لينفض عنها ذرات الغبار ويرتبها..حسب أبجديتها والأرقام والأقسام..يحضر اللوائح ليسجل ما لديه من الكتب..

أنهى الكثير منها كلها تقريبًا.. وثّق أسماءها.. على سجلاته ونفض الغبار عنها..

كانت المكتبة لا تحوي الكثير من إضاءة الشمس.. حين يكون الباب مغلقًا ..

يصعب عليك التعرف إلى الوقت وأنت في الداخل ..

كانت إشارتها .. مغلقًا!

لم يحرز ذلك حيزًا من تأثير فقد كانت أقدام المارين من هنا ضئيلة!

سالم: يا إلهي يا إلهي.. كل الكتب خارج الرفوف!

خط محمود على لوحه الصغير الأبيض.. حيث يكتب الكلمات ويتمكن من إزالتها .. تبقى الرفوف .. الفوضى عارمة..

سالم يضحك وتغور عيناه في فراغ جلده المترهل: كم أنت جيد يا فتى!

محمود يكتب لقد أنهيت الكتب، وأخذت أسماءها.. كم الساعة الآن؟!

سالم: إنها التاسعة مساء يا بني..

صدم محمود أنه هنا منذ ما يُقارب **11** ساعة أو **12** ينظف الكتب.. كم هذا غريب! لقد مر الوقت سريعًا ..

لربما لأننا حين نكون مع ما نحب أو من نحب نتجرد من الفرضيات البديهية الزمان والمكان.. لنعيش اللحظات اللا نهائية..

والتي تنتهي بفراق على مضض.. مع وعد العودة في أول ساعات الإشراق النهارية القادمة..

ودّع الكتب حاملًا قوائم أسمائها، وكأنه يسجّل في زاويا العشق.. ما لذ وطاب من غزل في وصفها.. يعدّها بالقدوم خصيصًا لحضرتها.. ليتربّع على كرسي القداسة المعنون بها.. تلك التي كانت كالعطر العالق بجسد عاشق .. عقب العناق ..

إنه يبتسم، وينظر إلى أوراقه المليئة بالأسماء.. يشعر أنه حقق إنجازًا للتوِّ.. يضمها راكضًا، وكأنه يصلي أن يعلق ريحها بثيابه.. تقوى رجفات قلبه..يشعر بتثاقل الهواء، ويبدأ باللهاث.. ليتنبه أنه يركض مسرعًا.. ولِم! العجلة؟! يقف ليتحسس الدقّات.. الدقّات إنها فوق النبض الطبيعي، ولكن أفكاره لم تكن كذلك..كانت تدور في دومات..عن الوقت،والمساء.. عن أمه، وأبيه عن حالة المنزل الفارغ!

يسرع أكثر متناسيًا التفكير ومدججًا إياه بآلاف الأسئلة..

يقرع الأبواب، ويهم بالدخول ..

الظلام الدامس، والعتمة في كل مكان.. يحاول ألا يصدر صوتًا!

وهي قابعة في الظلام بلا نور..

الأم: أين كنت؟

يرمقها محمود .. نظراته قالت في عملي، وهي فهمتها..

الأم: لِمَ تأخرتَ؟! وما هذه الأوراق؟! وأين العمل؟! وما رقم الهاتف؟! ألم تأكل منذ الصباح؟!

يجول بخاطره: ما كل هذه الأسئلة؟!

ما بال فوضى أمه!

وعاد السكون المقيت.. سكون الترقب عقب كل هذه الأسئلة.. صوته الناهي لتفاصيل الأصوات..الباعث على السلام النفسي يخرج من حنجرته!

محمود: في المكتبة.. إنها أوراق عملي.. لذا لا تعني أحدًا غيري .. لا هاتف.. مكتبة العجوز.. لم آكل شيئًا.. إني سأعد طعامي بنفسي.. بإمكانك الخلود للنوم .. أي أسئلة أخرى؟

تنظر إليه بتعجب..

ما بال جفائه اللا معتاد معها، ولِمَ البراد سيطر على أركان صوته الدافئ؟!

تنهض عن كرسيها، وتشعل ضوءًا خافتًا ..

الأم: اذهب، وغيّر ملابسك، ثم تعالَ لنتناول الطعام معًا..

نظر في حجر عينها.. تلك الهزة الغريبة أقل من ميل واحد يمنة، ويسرة .. ثم تذكر ما خالج أحاسيسه على الطريق ..

ارتقى الدَّرج .. ريثما تعد أمه العشاء سيغتسل من الغبار ..

ما هي إلا ربع ساعة حتى علا صوت بانة في الهدوء.. منادية بالاسم المبجّل.. يترل الدرج وهو يجفف شعره بالمنشفة السوداء .. لطالما كره المناشف البيضاء..كانت في باله فكره أن الأسود يعني الهدوء، والسكينة في حين البياض هو كاشف الأخطاء.. كاشف كل شيء.. فإن فعلت عملًا سيئًا سيكشفه من لونه الفاقع على البياض وإن كان جيدًا فسيكشفه رغم فتور لونه! لذلك فضّل السواد فستره للأعمال الجيدة كان رائعًا وتخفيف وطأة السيء جيد أيضًا!

ثم عن حافة الباب ينتشل المصنف ويضعه على المنضدة..

الأم: كيف كان العمل؟

يهز رأسه .. موضحًا أنه كان جيدًا !

تفتح فاها لتسأل المزيد يضع سبابته على شفتيه دالًّا على أنه يريد الهدوء.. فلتكن هادئة!

تجلس في استكانة تراقب.. ينهي الطعام يحمل طبقه..يغسل يديه، ويضع الشاي على الموقد، ويجلس محاطًا بالأوراق ..

الأم: ما كل هذا؟

يرمقها بنظرة.. أن لا داعي لـــمعرفتك الإجابة!

يبدأ بالنظر إلى أسماء الكتب، ويرتبها أبجديًا، ويضع أرقامها التسلسلية ... ولا يفوته أقسامها وترتيبها..

الأم: سأعد الشاي..

يحرك محمود يده حركتين مشيرًا بأصابعه الأربع إلى الأسفل لها أن تجلس .. ويقوم هو بإعداد الشاي ..

يحضر الكوب في الطريق القصير بين المرمر الملتف حول زاوية المطبخ، والطاولة توقّعت ما سيحدث سيضع الكوب، ويشير بعينيه.. ستفهَم الإشارة، وتنتهي القصة المحزنة..

محمود: تفضلي .. أمي .. وهَدي راحته وتستقر على كتفها

الأم: ها ..

ينظر لها محمود بحنان: الشاي جاهز..

الأم: شكرًا ..

شعرت وكأهما اعتادا الحديث منذ زمن.. وكأن وضعيته المعتادة هي الحديث معها..كأنه نسي أنه ليس على ما يرام ولا يريد التحدث!

تبدأ في تناول الشاي وهي غارقة في شرودها .

يقرقع محمود بأصابعه فتحرك عينيها ناحيته ..

الأم: ماذا؟

محمود: يبدو أنك متعبة فلتنامي ..

الأم: وأنت أيضًا..

محمود: بقي القليل..

الأم: لديك عمل غدًا.. سأوقظك في الصباح الباكر.. هيا إلى السرير .

محمود: لحظات..

يخط أواخر الكتابات بخط غير منظّم ..

محمود: انتهيتُ..

يغلق الدفاتر ويجمع الأوراق المبعثرة ثم يرتقي الدرج.. قاصدًا سريره المريح!

وهناك يتمدد على سريره تلتقي عيناه مع أحد الأدراج في البعيد.. فينهض من السرير، ويتفحّص دفتره الذي يخط فيه كتابه .. لقد بقي القليل لإنهاء ما توصّل إليه حيال حياته السابقة! ينتشل قلمه، يداهمه النعاس، ولديه عمل غدًا! الصيف طويل قال لنفسه.. قَلّب الصفحات تأكّد من مكان سجلاّته،وعاد إلى السرير لينام مراقبًا القمر من نافذته، يسامر نجماته!،ويشعر بشيء من.. من توهان الفكرة!

إحدى أفكاره هائمة في مكان ما من عقله الصغير.. إلا أنه لا يستطيع الإمساك بها.. فيحللها، وينهيها.. إنها تطوف في حين تتثاقل عيناه..حتى غَطّ في نوم عميق ..

ويصدر في سكون الليل.. همس لا يتناهى إلى مسامعه، ولا يفتح قضبان النعاس عن عينيه!

***

بانة: هل أنت أحمق؟!

عادل: هل جننت؟.. لا أريد أن أقضي ما بقي من عمري أشب، وأشيب مع طفل أبكم وامرأة لا عمل لها إلا لومي وافتعال المناوشات ليل نهار!

بانة ألا ترى أن اهتمامك بالمنزل قليل.. أنا لست هنا لأرضي نهمك!..

عادل: أنتن النساء جوارٍ تحت أقدام أسيادكن ..

بانة: أو تعتقد أنك من أسيادنا؟!..

صوت سقوطها على الأرض كسر سكون الليل.. لربما من قوة الصفعة التي تلقتها منه .

ينزل الأدراج مغلقًا باب المنزل بقوة اهتز لها الأساس الراسخ!

فُتح محمود عينيه إثر السقوط، والضجيج الحادث في الخارج!

يقترب من باب الغرفة ويفتحه ليجد أمه تختبيء من جديد في الظلمات.

مرارًا وتكرارًا كان يضمر السخط لعادل ويراه يائسًا.

يسير باتجاهها كأنه كتلة حنان.. ملاك رحمة إلهية نزل إليها من السماء .

محمود: أمي..

حنية صوته المألوفة عادت .. لكنها مضاعفة!

الأم: ما... ما الذي...؟مح.. محمود .. صغيري ..

(دموعها تهطل بجنون.. لم تستطع إخفاءها وتلك الدماء التي تتساقط من أنفها تأبى الزوال.. إنها تلطخ وجهها الجميل.. تحاول أن تمسح الدموع مرارًا وتكرارًا)..

- عُدْ للنوم يا صغيري.

محمود: لا تمسحيها.. دعيها وشأنها.. دعيها تهطل.. ارتاحي من هم يثقل قلبك الطاهر.. من هَمٍّ اسمه عادل.. أمي.. أنتِ أعظم من ذلك..

الأم: اخلد إلى الفراش ..

محمود: سأكون حضنك.. صحيح أنك لستِ من ضلعي ولكني من رحمك.. استقراري الفيزيولوجي دقات قلبك.. يكفي بقلبي أن ينبض على مقربة من قلبك.. سيشعر.. بتلك النطفة.. قطعة الروح التي كانت يومًا في جوفك..أمي.. دعيني أكون من دموعك.. دعيني..حصن قلبك، وكل من يحاول اختراق أسوارك خوّليني بقتله، وتعذيبه..أمي.. لستِ وحيدةً ما دمت بجانبك..

(يقولها فتهتز أركان المنزل من أساسه)، أمي أخاف عليك قبل أن أخافك، ومن يقرب دمعك يا أمي عداء بيننا إلى يوم يبعثون ..

فتمسح دموعها والبسمة على الشفاه ترتسم ..

الأم: محمود.. إني أثق بك.. أقدّر خوفك، ولكني بخير.. عد إلى النوم .. عملك غدًا صباحًا..

محمود: أنتِ أهم من العمل..

الأم: أرجوك..

يقدّر محمود أننا نفضّل الوحدة أحيانًا لنناقش ذواتنا، ونكون مع أنفسنا نحلّل بمنطقية!فيجر أذيال الفكر إلى سريره الكستنائي.. ليضع رأسه على الوسادة فيشعر بذات الفكرة الهائمة لكنها أكثر عمقًا، وأكثر أذًى.. إنها تؤلمه وتزعج دماغه..بضع دقائق من المحاولة.. نامت عيناه .. تاركة أمه .. تفكر في ظلام غرفتها .. بما لا أحد يدري!

***

يستيقظ في الصباح .. ليَشقَّ طريقه .. إلى العمل ..

وأمه غارقة في السكون.. يدرك أن عينيها مفتوحتان.. إنها تفكر ..

يشك بأنها تقضم أظفارها، ويتناهى .. إلى سمعه شهقات متناثرة..

يخرج غاضبًا ..

يصل إلى المكتبة.. عالمه الأوحد ليرمي على فتحات بابه الهموم .. يلقي التحية، ويغوص في التنظيم حسب قوائمه، إنه يجد كل شيء سهلًا للغاية.. يكاد ينتهي من الترتيب كليًّا..لكنه يشعر أنه عَمل لآلاف الساعات في نقل الكتب، ونفض الغبار عنها، ومن ثَم بعد أن أنهى ثلاثة أرباع العمل .. رفع سبورته للعم سالم..

محمود: كم الساعة؟

سالم: الثالثة مساءً..

تعجّب محمود ما هي إلا ست ساعات مضت منذ قدومه يشعر بشيء من وجوب عودته، ويظل يكمل عمله..ما هي إلا ساعة وسينتهي..

بعد مضي ساعة ونصف كانت المكتبة حرم الجمال.. قديسة اللغات كاملة الأوصاف، شعر بولادة الكتب من جديد.. بعظمة الرفوف التي بانت عملقتها، نظر إلى الكم الهائل من الكتب، شعر بنشوة فرح فجائي، نظر إلى المكاتب.. بضع من تثبيت الإضاءة وكل شيء جاهز .. فكر أيضًا ببضع مناضد للقراءة ..

الجميل أنها لا تحوي ساعة، فلا تُحكم بالوقت.. لكن لا بد له أن يفتح النوافذ أيضًا؛ فالكتب كالبشر تحتاج الشمس أيضًا ..

يعود الشعور يهز أركانه، وكأنه للمرة الأولى لا يستطيع أن يرمي الأفكار خارج حرمه المقدّس، لربما.. لأن فكرته أكثر قداسة من الكتب!

وتعاوده صورها .. مرتجفة .. على السرير ..

يرتدي ثيابه، ويودّع سالم مستعجلًا.. كان سالم -على أية حال سيخبره ألا يعمل أكثر اليوم .. فترتيب كل هذه الكتب عمل مضنٍ حقًا.

يركض إلى منزله مسرعًا، يفتح الباب..ليجفل مصدومًا من مشهد أمه على الطاولة!

إنها كالملكة..عظيمة،مرفوعة الرأس..تبعثرت كحلتها، تبدو وكأنها ستدلي بكل ما تملك ستكشف الأوراق، وكيانها الراسخ.. الصمت المبجل. في حرم العظمة هي الزلزال.

الكلمات تصرخ بداخله.. تتفاقم .. لكنه لا يجد إلا الصمت.. إلا النظر في عظمتها ليشعر بصغره، شعر بانحسار العالم بوجودهما، وأخذ يفكّر بالشعور الذي يجتاحه إنه تبجيل ولكنه شيء آخر هذه الفكرة الهائمة إنها القلق.. قلبه ينبض يريد منها أن تفتح فاها لتحدث بما تستر!

تنسى أن تأخذ النفس العميق..قبيل البدايات، وتتحدث..فيرن صوتها يكسر الصمت، ويجلجل صداه في الأركان.

الأم: لم يعد والدك! ولن يعود..

شعر أن دمعة يجب أن تنزل غصة أو شهقة لا بد من أن تلوح في صوتها ..

ولكن لا شيء .. تكمل كلامها .. بذات الكبرياء بذات البرود

الأم: قررنا الانفصال.. هو قرر فعليًّا .. لكني أراه الحل الأفضل!

دُهشَ محمود فرغم أنها تبدي اللا مبالاة.. فإنه شعر برجفة في قلبها..

تهطل الدموع بلا شعور ...

الأم: لم يأخذ معطفه حين خرج .. لم يعد .. لم يتصل .. إني أخشى أن يكون قد أصابه مكروه..

ينظر في عينيها.. كم يسهل أن تتحول المرأة من ملكة إلى طفلة .. كل ما تحتاجه هو رجل ..

لا يمكن نسيان فترات الحياة التي قضيناها مع الشريك بسهولة .. لا يمكن البتة.. يقترب من أمه، ويشعر أن كل ذرة في كيانه أثقل.. يتقدم، ويشعر أنه في كل خطوة يكبر عشرات السنين، وتفصل بضعة أقدام عن أمه.. ليجدها بين ذراعيه.. يجد أنه يفرغ ثقل ذرات القلق في جسدها ..ذرات القلق..معادلة كيميائية.. فحين تخرج من جسدك تُنشر في الهواء.. في الحضن في العناق..تختلط مع ثاني أكسيد الاهتمام لتتحول إلى طمأنينة ..

الطمأنينة هي الشعور الذي خالجه.. شعر أنه يحول ذرات قلقه إلى ذرات حب.. يشعر أن ثقله يتفشى في ضلوع والدته.. يربّت على خصلات شعرها..طفلة حضنه اليوم، وهو أشيب حضرها..هو عجوز حكيم..يقف في مقامها.. يعلن الولاء.. مجردًا من كل شيء إلا الإحساس بنبضها، وتستكين الشهقات..عقب استلافها بضع نبضات من القلب الشقيق.. يشعر بهدوء صغيرته..يقودها إلى السرير.. رَويدًا رويدًا، ويغطي إثرها ليحضر كتابه بقشعريرة لم يسبق أن شعر بها.. ويتمدد بقربها.. ينظر إليها، ويشعر أنه في حضرة عظمتها عاد

صغيرًا..إلا أنه شاب ووسعت حكمته..إن دقات قلبه جُنّت، وحجر عينه.. إنه يشعر برجّاته المتتابعة.. قلبه، عينيه، يديه، وكأن الثقل عاد مضاعفًا، وكأن ذرات الثقل ترتبط بك كطُفيلي تتشبث بك..مجرد غياب شعاع من حكم قلقك، ومن ملك مفاتيح تفكيرك.. القلق..ردّدها مرة واحدة.. لم يكن بحاجة لمرة ثانية فقد اجتاحه الشعور.. تلك القشعريرة تهز كيانه ثانية، ويشعر بعمق الفكرة.. ليجد أشلاء المشاعر تطفو هناك، ويعنون في صفحة جديدة من كتابه القلق .

القلق: أن تشعر بتبعثر جسدك رغم صغر حجمه إلى آلاف القطع الصغيرة، وحين تتلمسه تجد كل القطع في مكانها..كأنه سراب..أو تلاشي ضوئي.. هو بناء الفكرة عشًّا علي فتحة مدخنتك الدماغية! فتغلق كل إمكانيات خروج غازات الاحتراق السامة..المشكلة..أنها تتشعب.. إلى أجزاء جسدك.. دائمًا، وأبدًا..القلق مربوط بشيء ما.. أو شخص ما.. أو روح ما! فالروح يمكن أن تكون روحك أنت.. أي ذاتك .. المهم أن القلق لا ينبثق من العدم.. فله أسباب منطقية أو لا منطقية.. لربما لا ندرك الأسباب طبقا للوعي..إلا أن دماغنا حللها آلاف المرات .. أو لربما قلوبنا فعلت ..

يأخذ نفسًا مكبوتًا..خوفًا من أن يحرك نَفسه ذرات الهواء التي تلعب داخله فيوقظها، ويلقي عليها نظرات التبجيل، والتقدير..لا يزال الوقت مبكرًا على أية حال فهي لم تتجاوز الثامنة ..

في القلق.. تلك الرجفات..امتزاج الموت في الحياة،واقعيًّا.. غياب أطراف ثوب القلقين لأجله.. يجعلنا نشعر بالهذيان، وكأن الشعور يتأصل فينا،ولكنه يرتبط بهم..في غياب جزئيات كيانك لتتحد بكيانهم..القلق.. نتيجة! لمشاعر أوسع.. لمشاعر أكبر.. للاهتمام... القلق نتيجة الاهتمام ..

يغلق دفتره تعبًا، يلتحف فضاء سريرها .. لينام هناك مطمئنًّا أنها هنا .. وأنها بخير..

***

يصحو في الصباح.. ليكمل عمله في المكتبة.. دارسًا كيفية وضع الأضواء.. مخطّطًا لمكتبته، وكأنها طفلته التي يزيّن خصلات شعرها، وكأنها بيته المقدّس.. صلاته التي يجب ألا يفكر خلالها سوى بالكتب إلا أن اليوم.. خشوع صلاته ليس كالمعتاد ..

في غياب رجل المترل يشعر الطفل أنه يكبر فجأة.. فالرجل ليس بالعمر بل بالفعل.. عليه أن يوزن حياته، وحياة والدته.. أن يكون مرجعًا لها.. سندها الذي لا تخشى معه شيئًا ..

يخرج اليوم أبكر من المعتاد، لابد أن يفصل العمل عن الحياة اليومية!

يركض إلى المترل .. فأمه النائمة استيقظت ..

الاهتمام: الاهتمام هو الشعور بأن شخصًا أو شيئًا يعني لك، ويهمك أمره..حزنه، وفرحه..حالته ومشاعره..الاهتمام .. يأتي نتيجة سكن أولئك الأشخاص أو الأشياء قلوبنا وعقولنا .. فيشغلون حيزًا من فراغ أجسادنا ..

يصل محمود، ويفتح الباب ..

أمه بثوبها الخمري القصير،ومئزر المطبخ.. بشعرها الطويل المرفوع، وربطته الرائعة.. كل هذا كان نقطة في بحر بسمتها . . .

محمود: أمي؟

الأم: عزيزي .. تفضل الطعام جاهز..

يغسل يديه، ويجلس على الطاولة..

الأم: كيف كان العمل اليوم؟

ينسى محمود حظر الكلام.. ينسى أنه يحب الهدوء.. بسمتها جعلت الهدوء يسكن في صوته ..

محمود: كان جيدًا..

ما زالت تعتقد أن صوته يحمل الحكمة المبهمة .. يحمل الإقناع بين ثناياه ..

الأم: إني بخير اليوم.

محمود: أحقًا؟

الأم: والدك رجلٌ بالغ وراشد ذو عقل حكيم.. لا بد أنه يتدبر أموره، وقصة الطلاق ستنتهي عما قريب.. لن أشغل بالي بأحد بعد اليوم، سوى صغيري .

ابتسم ابتسامة رضا، وأكمل طعامه بهدوء ..

ذرات القلق التي تحيط بنا ما إن نجد ذلك الإنسان الذي يقلق لقلقنا.. قلق الاهتمام ذاك.. يجعلها تختفي، ويذوب.. كما السكر في الشاي، وتلمع عيناه بريقًا.. بريقًا يطمئنها، ويخبرها أني هنا لا تخافي ..

***

ينتهي الصيف وتبدأ المدرسة الإعدادية.. مدرسة جديدة .. الخلطة مع التلاميذ ليست بالكبيرة .. الأسوأ أن غيّاث ليس هنا .. هذا ليس مهما على أية حال، فقد أصبح يدرس أفكار الآخرين ليرى أن بعضها منطقي، وبعضها الآخر صادر عن قله وعي، وإدراك.. لا يجد في صفه.. أي من الأطفال الذين تلاقى تفكيره معهم.. شعر بالانزعاج الجزئي.. لا يريد أن يشغل أفكاره بهذه الترهات.. عليه أن يذهب إلى العمل بعد المدرسة قبل توجهه إلى المترل..تمضي الأيام، وتصبح المكتبة بعد التعديلات كالجنة المصغرة، وتكاثرت الأقدام هناك.. فكثير من طلاب الجامعات يحتاجون المراجع والكتب العديدة ..

سير الكتاب على قدم، وساق. آخر ما دوّن فيه القلق والاهتمام والرابطة بينهما حقًّا حياتنا مترابطة المجمع الإنساني الضخم يشبه مجمع الذرات ترابط، وتفكك حتى الاحتراق يمكن أن يوجد أيضًا .. غالبًا، سيحوي اسمًا مختلفًا.. أو معنى مختلفًا.. فالاحتراق بين الناس.. قد يُعنى

به احتراق الفكرة.. لا احتراق الجسد.. أو قد يكون شيئًا منافيًا للأفكار.. شيئًا مربوطًا بالمشاعر.. الحنين احتراق، والشوق احتراق، والفراق القسري.. كلها احتراق داخلي ..

ألسنا نشبه الذرات حقًا.. صغيرون جدًّا في هذا العالم.. الحب يربطنا وتفرقنا الكراهية.. صغيرون جدًّا.. يصعب على أحدنا أن يعيش مفردًا .. على الأقل إن أراد أن يكون أكسجين ..

يكبر الإنسان لتتسع مداركه..فمثلًا ذرة الأكسجين..ترفض الارتباط بذرة أكسجين فحسب.. قد تفضل الارتباط بذرة كربون أو جذر حمضي مثلًا! هذه هي الحياة.. نكبر ولا بد أن تكبر عقولنا..

ها هو ذا في الصف التاسع..الامتحانات أصبحت وشيكة، وعادل لم يسأل عنه بالمطلق، ولا عن والدته.. لربما مات بحادث سير أو دهسته شاحنة.. اعتقد أيضًا أنه تعاطى المخدرات وسقط من سطح بناء شاهق.. لا يهم.. لقد كان يائسًا.. يتنهد محمود.. كنت أريد لعادل أن يسمع كلماتي.. كنت أنتظر الوقت المناسب فحسب، لقد رحل ..

ورجل البيت الآن هو أنا.. رائع أن تكون رجل المترل.. أن تشعر أن لك انتماء لامرأة.. حتى لو كانت أمك.. هذا يشعرك بشيء.. لا لا.. بكل المسؤولية ..

المسؤولية رائعة.. سهلة في الغالب.. إلا إن كانت امرأة.. إنها تحتاج عناية خاصة.. عناية رقيقة.. فالمرأة التي تلقى عناية خشنة.. سيخشوشن عودها وكذلك الرقيقة.. أما تلك التي تنثرها وتدثرها مع

أثاث المنزل بلا عناية.. هذه أخطر الأنواع.. فهي بكل طباعها ستكون معك شرسة.. ستكون الجحيم.. بإمكاننا جميعًا أن نتخذ جانبًا في الحياة.. الملائكة أو الشياطين.. يصعب أن نقف على الحياد بينهما...إلا النساء.. بإمكانها أن تتقن دور الملاك وفي أدق تفاصيل ملكيتها..تنقلب شيطانًا، هن الرائعات في التقلب على حبال المزاجية، والأوصاف..فالأنثى هي الملاك الشيطاني، والشيطان الملائكي.. هي كلاهما، وهي لا أحد !

الأم: فيمَ تفكر؟

يهز رأسه نافيًا.. أن لا شيء يذكر.. تبتسم.. بينما يجمع كتبه، ويحمل الحقيبة مسرعًا إلى المكتبة..حيث إنه يقضي هناك معظم وقته.. يدرس، ويساعد العم سالم في توفير الراحة لأولئك القلائل الذين يأتون طلبًا للعلم وحبًا بالاستطلاع.. قلقه زال.. بسمة أمه أفادت بهذا! ولكن لا يجب عليه أن يقضي كل ساعات النهار في العمل بينما هي في المنزل وحيدة!

لا بد من حل سريع وجذري.. ولكن في ذات الوقت لا يمكنه أن يترك العمل ها هنا، أو يتغيب!

ويعود في المساء وإذا بأمه على منضدة الطعام تنتظره ..

الأم: بديهي أنك لم تأكل.. هيا اغسل يديك وتفضل ..

يبتسم لها، وكل كلمات الشكر تظهر في عينيه.. أحيانًا تعلق الكلمات على أبواب الشفاه تأبى الخروج خجلًا من حسن ذلك الشخص المبجل .. الذي ستلقى في أثره ..

محمود إنه .. لذيذ .

يهز كيانها؛ فحين نعجز عن الكلام البسمة اللا إرادية في وجه الشخص المناسب تقتل الكلمات جميعًا وتوقف الاضطراب الداخلي في ذات الوقت.. يهز كيانه نشوة، وسعادة خاصة إن كانت بسمتنا نادرة!

حقيقة..كان محمود كثير الابتسامة ليبين سماحة الصدر والترحيب حيث إنه لا يتكلم.. إلا أن البسمة الخجلة هذه.. لم تكن من قبل تظهر على وجهه..

تبتسم بدورها: بالهناء والشفاء..

أحيانًا.. تفصيل دقيق.. يبعدنا عن كل شيء.. عن كل الهموم ..

لا بأس.. حين ينتهي الامتحان سيصبح كل الوقت ملك محمود، وسيقضي عطلة رائعة بين الكتب ..

أيام تفصله عن هذه العطلة، وتنتهي حرب الكتب التي غالبًا يجد نفسه لا يستفيد منها إلا لـتحصيل الدرجات المدرسية.. ثم ينفي عنه عبث الأفكار ويخلد للنوم مبتسمًا.. شيء أوسع من التفاؤل .. يجتاحه

وها هي.. تمر بسرعة أيام الامتحان .. لم تكن أيامًا مميزة .. متتالية بشكل رهيب .. لكنها لا تدعو إلى المقت ..

تأتي العطلة.. محمّلة بالفراغ الزمني ولكن ليس الفراغ الفكري.. يشعر أن لديه آلاف الفكر لــيساعدها على الولادة.. على البزوغ إلى النور..

إنه صباح يوم الجمعة.. آخر أيام الأسبوع! بشكل أو بآخر لا يشعر بتمييز تجاه هذا اليوم.. فهو كــغيره من الأيام، المصادفة تجمعنا مع أنفسنا أيامًا.. بطريقة بديهية..اعتيادية ، لكننا نصدم! لربما تكون أكثر الطرق بديهية شيئا غريبًا بالنسبة لنا!

الأم: هيا محمود.. الإفطار جاهز..

بلا وعي.. ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة.. فيعود أدراجه.. ليقف مقابلها.. ينظر في انعكاس صورته، وتتراءى له طفولته بالحجم الصغير! يبدو أنه شبَّ سريعًا! يشعر بشيء من الحكمة ولكن شيئًا من الجنون يتخللها، يتأمل نفسه هناك.. لقد أصبح راشدًا الآن.. هو الآن رجل المنزل بكل معنى الكلمة.. لم يعد طفلًا، ويفكر قبل أن ينتشل مفكرته التي يدون بها ما يتوصل إليه ليصوغه لاحقًا ..

نشبُّ ونشيب سريعًا.. لكن كوننا لم نعد أطفالًا يجعلنا نكون سند من يحتاجنا .. رغم أنه من المحتمل أن تكون طفولتنا غريبة ومتفردة!

يغلق المفكرة مع ملخصه، وينزل الأدراج وهو يفكر بانعكاس صورته،ويشعر بشيء غريب يدفعه إلى الابتسام..الابتسام فحسب !

يتناول الطعام، وينطلق في طريقه إلى المكتبة.. كي يُكمل عمله..
الأفضل أن الجو المتوتر للامتحانات انتهى.. رغم أن توتره نادر.. لقد اعتاد أن يكون هادئًا ورزينًا دومًا، وفي الطريق ينظر إلى الأشجار ..

تشبُّ وتشيب، وتتساقط أوراقها..

نحن أيضا نكبر سريعًا،وعندما نكبر..تتوسع مداركنا وتزيد أفكارنا مدارًا آخر، ونشعر بشكل أو بآخر بمسؤولية.. تقيدنا أيامًا، وتسعدنا أيامًا.. المسؤوليات جميلة لكنها قبيحة على حد السواء..

البلوغ ليس بضع تغيرات فيزيولوجية في جسد الفتاة أو الشاب.. إنما هي تطورات فكرية تطرأ على الدماغ..بينما النمو يمكن أن يصنف على أنه ممثل لتلك التغيرات الجسمانية ..

لم أشعر بصدق بفترات النمو المتغيرة.. وجدت نفسي فجأة شابًّا..

يفكر..أكان هذا مزعجًا؟! أنه لم يتبع سلسلة نموه! ويرى أنه ليس مهمًّا حَقًّا.. إلا أنه مجرد تخفيف للصدمة الأولية من كونك أصبحت أكبر..غالبًا ما كانت فكرة أنه عندما نكبر نرى العالم أصغر.. فالطفل الصغير يرى كل شيء كبيرًا.. أمه وأسرته والسرير والدُّمى .. إلا أننا عندما نكبر نخرج إلى عالم أوسع من غرفة الألعاب ومنضدة الطعام أو الرف المرتفع ..!

نرى الحياة أكبر كلما كبرنا..لأننا لا نرى بأعيننا فهي ليست رؤية، ولا حتى بالبصيرة.. دماغنا هو أداة التحليل! هو الرؤية .. على سبيل المثال :

الطفل الصغير.. يرى الوعاء الموجود في الدُّمى ..ويرى وعاء أمه..كلاهما وعاء..ورآهما وعاء..إلا أن دماغه ميز الأحجام .. فعرف أن أحدهما كبير والآخر صغير، الصغير للعب وفي حين الكبير لأمه التي ستغضب إن كان قد عبث به ..

ولكننا في الغالب كنا نلعب بالأوعية في طفولتنا ..

لأننا نملك حب الاستكشاف.. في الصغر حجم الأشياء متعلق بحيز مكاني محدد.. مهما يتسع سيظل محدودًا.. لربما لأن أكبر خيالاته، وأحلامه..هي دمية كالتي مع طفل آخر أو.. أن يكبر! وليته يعلم كم كانت أمنيته خاطئة! غالبًا لا يحقق القدر هذه الأمنية إلا في حال الموت المبكر ..

في حين أننا عندما نكبر يتوسع العالم نتيجة توسع مداركنا.. فنعرف أن الحياة أكبر من كونها المترل والأسرة.. إنما هي المدينة بأكملها؛ المدرسة، والأصدقاء، وعندما نكبر أكثر نعرف أنها دول مجاورة، وتصبح أفكارنا في كيفية بلوغ المستوى الدراسي..وما إلى ذلك ..

يتبع البالغون المنطق، ويتعمقون في الحسابات، في حين يتبع الطفل الجديد الحدس إلا أن الحدس مثلًا لا يخبره ألا يقترب من الدبوس لأنه حاد!، وبالتالي سيجرح أصبعه بديهيًا، وهنا يعمل المنطق.. إنه لن يقترب من الدبوس ثانية إلا ليكرّر التجربة، وهذا يمثل خروجه من طور الحدس إلى طور الاستكشاف.. فما إن يجرح نفسه ثانية حتى

يوقن أنه يؤذي..فينتقل إلى طور التصديق.. فلا شيء يمكن أن يكون في طور التصديق لا يمر بمرحلة الحدس، والاستكشاف، وما دون ذلك ما هو إلا توارث معتقدات.. في حالات كهذه يجب أن يمر بمرحلة نقد ما قبل التصديق .. هذا ما لا يحدث غالبًا.

ينظر محمود إلى الطريق.. لقدر تجاوز المكتبة فعلًا.. ينظر في دهشة السؤال.. كيف قطع كل هذه المسافة دون أن يعي ذلك؟! ويعود أدراجه إلى المكتبة.. بصدمة دفعت أفكاره جانبًا!

يُلقي السلام، ويدخل الحرم المهيب..الهموم تُلقى على قارعة الطريق المؤدي إلى المكان المقدس! وتنتشي الفرحة في الغوص عميقًا بين رفوف الكتب العملاقة ..

المكتبة اليوم تضج بالبشر.. منهم من يقرأ كتابًا وآخرون اكتفوا بـــجريدة وفنجان قهوة.. بينما البعض عابرو كتب.. ينتقونها، ويخرجون!

سعادة ما تتخلل ذاك الذي يقرأ كتابًا في البعيد.. في بقعة لا يكاد يلامسها النور بشكل جيد .. ذاته محمود *!

في لحظة اقتراب طفل صغير في السابعة من عمره ليشد بنطاله بضع شدّات متتالية ..

يغلق محمود كتابه مع حفظ سبابته بين الصفحات، وينظر إلى الطفل المتسمر في الأسفل .. بنظرات تساؤل حانية..

الطفل: هل لك أن تساعدني؟!

يهز رأسه إيجابًا ...

الطفل: أريد كتابًا عن الإنسان في العصور القديمة..

ينظر إليه محمود.. فيعرف الطفل أنه يريد بعض التفسيرات!

الطفل: المعلمة أخبرتنا أن الإنسان قديمًا كان عقله بدائيًّا! ولكني غير مقتنع بذلك..فالله خلق عقل الإنسان متطورًا..لم يمر عقلنا بمراحل تطور، أتفهم ؟! لكن إدراك الإنسان كان بدائيًّا إلا أنه كان متطورًا في ذات الوقت! لأن البيئة التي عاش بها! كانت بدائية، ولو كان عقله بدائيًّا لما اكتشف النار وما إلى ذلك؟

اتسعت ابتسامة محمود ..

الطفل: لذا أريد كتابًا اقرأ به قليلًا فأدعم معلوماتي، لو سمحت..

نهض محمود بشيء من الحكمة، نظر إليه الطفل.. فلمعت عيناه..
تناول محمود كتابًا، وناوله له ..

همس الطفل ..

الطفل: يومًا ما .. سأصبح شابًّا مثلك *!

فتح محمود فمه ..

محمود: ستصبح شابًّا، ويتوسع فهمك، وستدرك أن ما يتضخم هو وعيك، وإدراكك للأمور، جسدك مهما ينمُ لا يعني أنك كبرت! إنما عقلك هو ما يكبر ليحدد ذلك ..

ينظر الطفل في إثر محمود ..

الطفل: أجل .. إني أعي ذلك!

يتناول كتابه ويسير بهدوء عند العم سالم .. ليخبره عن رغبته في استعارته، يبتسم محمود ابتسامة واسعة..

شيء ما تخلله،كان أوسع من كل شيء.. ورجّ صداه في ثنايا روحه.. أحس أنه يدفعه بقوة إلى الابتسام في إثر الصبي الصغير ..

غدًا سيكبر الطفل دون أن يلحظ .. سيغدو شابًّا..

يفكر بطريقة مختلفة..سيغير جزءًا من الكون، ويضع بصمة أخرى فيه!

هذا هو الأمل..لا إنه لمحة ثوبه من خلف نافذة الربيع.. كنحلة جاءت تبشر به ... معلنة انتهاء الشتاء المعتم..

ويتذكر الصمت المبجل..ذاك الموقر الذي غرق به طيلة الستة عشر عامًا الفائتة.. إنه لأمر مهم أن نصمت إلى حين يكتمل نمو جنين أفكارنا ذاك الجنين المربوط بسلسلة صلبة تمنع الأفكار من الاندثار هباء.. يجلس على الكرسي..لكل فكرة أعداء.. يحاولون تهشيمها..

فقط تلك التي خرجت قبل الأوان ستندثر وتُلتهم أشلاؤها.. لأنها – بمحض البديهية – خرجت قبل أوانها.. قبل اكتمال الدرع اللازم للدفاع عنها وبنائها ...

يفتح كتابة عند المؤشر.. الصيف في بدايته والشمس الحارقة لا تتسلل إلى المكتبة المدفونة تحت الأرض. موقعها مناسب للحديث عن مكتبة كانت من عصر الفراعنة أو من القرون الوسطى مدفونة تحت الأرض تضم كل الكتب التي كتبها عالم ما قبل الميلاد، وبعده..أو تراجيدية عشق لفتاة دُفنت مع المكتبة مثلًا.. إنه الخيال .. الخيال ليس شعورًا!

فأنت لا تشعر بقلبك أنك تتخيل شيء ما..إنه إدراك عقلي.. يميز بين ما يمكن أن يوجد في الواقع وما ينسجه الدماغ من جمع شتات المراحل المختلفة الشخصيات المتنوعة والأزمنة والأمكنة المتباينة.. لينشأ بذلك حيز مكاني وزماني جديد وحصان على هيئة فيل بأذن فراشة ..

غالبًا وبإمكاننا الجزم أيضا باستعمال .. دائمًا .. ما يكون العقل البشري واعيًا في نسج الخيال.. فالخيال لا ينسج بلا وعي، بل هو بمجمل إرادة الإنسان!

الخيال.. يرسم على وجوهنا ذات الابتسامة حين ننظر في إثر طفل وليد أو صغير *

لِمَ ذلك؟ ببساطة لأن الأمل مرتبط بالخيال بـــشكل أو بـــآخر..

كيف ذلك؟ حين ننظر إلى الطفل .. نتخيل أنه سيصبح شيئًا مهمًّا وبالتالي نأمل ذلك .. فكل أمل بُنِيَ على خيال!

حتى لو كان هذا الخيال هو خيال مستقبلي قصير الأمد ضمن الحد الواقعي للأشياء.. فلا يوجد قانون ينصُّ على أن الخيال هو مجرد ما يكمن تسميته بخرق قوانين الطبيعة أو الأشياء ما فوق الطبيعية .. فكمثال بسيط: أنا أتخيل نفسي فيلسوفًا.. بالتالي سأتأمل أن أصبح ذلك الفيلسوف والتأمل هنا بـــمعنى الحلم، وينص مفهوم الأمل أن الخيال أو الحلم وحده لا ينفع دون العمل.. فمن ابتغى أو أمِل شيئًا.. سعى له حتى أدركه!

أو مثلًا تخيلت نفسي مجرد رجل عاطل عن العمل.. فـــاقشعر بدني وأملت ألا أصبح كذلك.. في كلتا الحالتين يبقى المفهوم راسخًا، إذ يجب أن أعمل على نفسي كي أصل إلى أملي ومبتغاي*!

الأمل، وابتسم محمود، وألقى نظرة في الأرجاء! الأمل.. هو هذه المكتبة التي في فترة ليست بطويلة.. أصبحت الأكثر زيارة في المدينة، وتذكر أمه فاتسعت البسمة..فما يحمله وجهها من حنان يكفي لتشعر أيّ يائس بالأمل وهنا تذكر عادل اليائس.. فالأمل نقيض اليأس، وعدوه الطبيعي في سلسلة التوازن الكوني للمشاعر!* يغلق الأنوار المضاءة في كل مكان، ويكمل طريقه إلى المنزل.. الشمس لا تزال

ساطعة مع أن النهار قد رحل وهم في المساء! هذا حال أيام الصيف على أية حال ..

أن تشعر بشعور مُركّب من السعادة، والتفاؤل، وعيش الواقع خيالًا مطلقًا، وحلمًا منسوجًا بطريقة لم تسمح لخوارق الطبيعة بالوجود، المزج البسيط بين التفاؤل والواقع، والحلم القصير الملم بالمستقبل.. الأمل كما يمكن تضمينه بتوقع مستقبل أفضل.. إلا أن الشعور بحد ذاته رغم عظمته فهو متواضع جد التواضع! الشعور الإلهي بأن الخير في كل مكان يقودك للإحساس أن كل شيء على ما يُرام والكون ما يزال يجري وفق قانون التوازن الأخلاقي.. أن تنظر إلى كل ما حولك بإيجابية بحتة، وتبتسم في وجه كل شيء.. الأمل .. نور بسيط خافت إلى حد ما! إلا أنه يشير إلى الطريق الصحيح ! يضعك على مفترق الطرق ويشير هنا السعادة..لكن الطريق لها طويل..شاق، ومضنٍ.. إلا أنها موجودة هناك، وعلى الطريق أطفالها يلعبون كل منهم هو لك هدية فاعتنِ به ..

ينظر إلى الأشجار.. إلى السماء .. إلى ذرات الغبار..

في الأمل.. كل شيء يدفعنا إلى الابتسام.. مجرد كوننا على قيد الحياة يومًا بعد يوم يدفعنا إلى الأمل، والأمل مختلف عن التأمل لكنه ناتج منه .. فالأمل ليس نتيجة القناعة بقدر ما هو التصالح مع الذات في سبيل عدم القناعة أيامًا! وأيامًا أو غالبًا لا تُعنى دائمًا! فالأمل نسبيًّا

وليد الإيمان! بأن الخير في ما كتبه الله، لذلك ليس هناك ما يدعو للحزن.. لذا نبتسم! فحياتنا ليوم إضافي هي حلم أحدهم في غيابة القبر وأمنية أحدهم يوم العرض.. هنا تكمن النظرة الأخرى للعالم! بشكل أو بآخر الإنسان الذي يحيا على الأمل ..

الأم: محمووووود .. ما بالك؟! إني أنادي منذ قرابة ربع ساعة!

يخرج من سلسلة أفكاره، ويحرك رأسه ملتفتًا إلى أمه التي وقفت على ناصية درج المترل.. يحاول أن يمسك بها.. تلك الأفكار التي تهرب.

يجمعها .. في ذات اللحظة التي تنادي الأم ثانية:

– ما بالك ؟ . هيا فلتدخل! يجب أن نتحدث!

العيون غالبًا تحكي القصة باختزال ..

إلا العيون الراقصة.. تطيل الرقصة قدر المستطاع وتستخدم الإيقاع الطويل .. إلا أنه هادئ رغم اشتعاله *!

محمود: تبدين سعيدة، قالها أخيرًا ..

الأم: إني كذلك فعلًا..

محمود: رائع .. ويجلس على طاولته لـــيتناول الغداء ..

وأحس أنه من غير اللائق ألا يسأل عن سبب سعادتها ..

محمود: لِمَ؟

الأم: سأبدأ بـــعمل رائع .. هذا يجعلني قمة في الحماسة..

محمود: ما هذا العمل؟

الأم: سأعمل في مرسم للوحات.. فكما تعلم أني خريجة كلية الفنون، وقد أحيت الكلية منذ بضعة أيام رسومًا قديمًا.. فـــلقيت رسومي رواجًا كبيرًا، وقرر أحد المراسم أن يعرض علي عملًا هناك..

محمود: أحقًا! يبدو هذا مسليًا!

الأم: سنبدأ من الغد، قضيت الليل كله أرسم .. وأستعيد لمساتي المتألقة .. هيا قم، وجرته من يده لتريه القبو وما فعلت هناك..

لم يستطع محمود .. أن يحكم نظرات الدهشة .. فقد كان القبو الميت في الأسفل .. يعج بعشرات الرسوم .. الصاخبة والهادئة والجدار في خضم رسمة أخرى .. يبدو أنها بدايتها!

محمود: مدهش .. لم أكن أعرف أنك بهذه البراعة! ثم يُتبع:

ماذا بشأن الحائط؟

الأم: إني أرسم هناك.. سأزينه بـــلمسة رائعة.. وأفكر أيضًا بـــشراء شاشة عرض سينمائية، نستمتع بها معًا.

محمود: فكرة رائعة أحبذ الأفلام الوثائقية.

تبتسم وتلمع عيناها، وهنا .. يرسخ في عقل محمود معنى الأمل ..
أراد أن يركض إلى كتابه فيدوّن ..

الأمل.. بريق المستقبل المشرق ومرحلة السعادة الإلهية الكامنة في المستقبل، فالأمل في النهاية جنين ينتظر الولادة .. فكرة قابلة للبناء .. الأمل..هو لمعة العين، والرقصة الهادئة الممتزجة بالوقع الصاخب !* صرخات الطفل الوليد، والفجر الجديد، والسماء الزرقاء، كل نفس ثقيل يتخلل رئتينا هو أمل..الأمل هو الذي يجعلنا نرى الأمور بوضوح.. فنقاء الروح فيه.. يضاف أنه الضوء الباهت الذي يدلنا إلى الطريق! لكن الضوء الباهت في الظلام الدامس أقوى وأكثر تأثيرًا من الضوء الساطع ساعات النور! والأهم .. أننا بديهيًّا سنتبع النور في الظلام، وإن حبذنا ظلامنا.. سيتبعنا النور، ويحكمنا لأنه المرافق لنا لا محالة ..

كان يريد أن يكتب هذا.. إلا أن يدًا سحبته.. كانت أمه، وهي تدعوه إلى الرسم معها، وأعطته الريشة.. لا بد أن بداخل كل منا موجة صخب يعبر عنها! أو موجة هدوء لربما! كل الأوجه تؤدي إلى الانقياد تجاه الإبداع، سواء بـــريشة أو قلم *!

لا بأس بمشاركة الآخرين أيامًا.. أخذ الريشة التي دفعتها أمه إلى صدره، وأخذ يلون الحائط، ولم يستطع أن يكبح الابتسامة العميقة من الخروج كانت أجمل ابتسامة أحسَّ بها في حياته.. لـــربما الأمر يتعلق بـــابتسامة أمه ..

حينما يكون الشخص على قيد الأمل.. لا شعوريًا سيجذب سحب جميع من يعنيه أمرهم إلى دائرته.. ناهيك عن الابتسامة التي يستحيل أن تتزعزع،وكأن الحرب قد وقعت،حرب خارجية لا تعني صاحبها.. حرب مشاعر في عالم ما فوق البشر، وكأن الأمل يخبر اليأس مجازيًا مَن المنتصر.. ما إن تدخل هذه الدائرة.. ستصبح في عالم تفكير إيجابيًا رغمًا عنك ..

الأم: رائعة .. عبثية ألوانك رائعة..

يبتسم بشرود، وكأن الكلمات ترجمها عقله إلا أنه لم يعِها.. حرفيًا.

كل منا في داخله.. مقدار أمل واسع! ويطرح على نفسه سؤالًا: كيف ذلك؟ببساطة.. دائمًا ما نحلم بتفاؤل، وتكون توقعاتنا في البداية لكل شيء على النحو الجيد.. مثلًا، ولتبسيط الفكرة المشوشة!* عندما تكون تفكر نسبيًا بالسفر أو طلب يد فتاة للزواج.. ستأتي الفكرة الأولى إيجابًا، وهذا هو الأمل، ثم تأتي الفكر التي نفكر بها عادة أن كل شيء سيتدمر ويتهدم ولن يحصل أي شيء كما نريد.. هذا هو دحر الأمل عن طريق التفكير السوداوي.. إلا أن أصل الأشياء هو الأمل، وإلا لتراءت لنا كفكرة أولية حظ عاثر!*، وعمل منتهٍ قبل أن يبدأ.

يلفت النظر إلى أمه التي أخذت تصفق بسعادة لا متناهية، وابتسامة واسعة ..

فيهمس في نفسه:

في الأمل نصبح أطفالًا، نتصرف بجنون بعيدًا عن عالم الكبار المحاط بالقوانين ..!

الأم: انظر كم هي رائعة! يبدو أنك والريشة على وفاق.. كما كانت أمك معها .. جميل بُني! جميل جدًا!

ينظر محمود ليجد لوحة عبثية من تمازج الألوان معًا يتخلل ثناياها تجريد لوجه سعيد.. كل شيء فيها يرقص فرحًا، أملًا بالأفضل!

محمود: يبدو أني كذلك حقًا..

يبتسم في وجه أمه ويضع ريشته على الرف.

والآن اعذريني .. لدي بعض الأعمال..

تكمل الأم: خربشاتها على حائط القبو.. داعية أن يكون جميلًا .. كما تريد، ويناسب غرفة السينما التي تحلم بها ..

في حين يصعد محمود ليكمل ما بدأه ويدون ما استنتجه عن الأمل لربما يتوسع قليلًا، وراح يدون في دفتره الكلمات.. رويدًا رويدًا ..

كل ما توصل إليه اليوم، لم يتوصل إلى الكثير على أية حال، لا بد له أن يستعد ليقدم أوراقه للمدرسة الثانوية الأولى على المنطقة *!

فقد كان من رواد المنطقة في شهادته الإعدادية ..

فكّر قليلًا.. بل مليًّا، وأجرى العديد من الأبحاث عن خلفيات المدرسين ليجد أن المدرسة تمتاز بأساتذة من المستوى المتوسط بينما مدرسة أخرى من المدارس العادية قد حازت على نخبة من المعلمين .. فقرر ضمنيًّا أنه ذاهب إليها *!

*وهل بات يتحدث؟!

طبعًا لا .. قطعًا لا .. لا لا وألف لا ..

تبدأ أيام الثانوية.. المصادفة هي كيف نلتقي بأولئك الذي فصلنا عنهم الزمن ..

غيّاث: محمود .. كم هو رائع أن نلتقي هنا*!

يهز محمود رأسه ..

غيّاث: لِمَ .. لَمْ تذهب إلى المدرسة الرقم واحد؟!

رمقه محمود طويلًا.. لى أن تذكر غيّاث كم يكره محمود المظاهر، يهتم بالجودة!

تجمعنا، وتُفرّقنا، وتتقاطع طرقنا ثانية، وقد نتوقف عند التقاطع نعاتب بعضنا بعضًا أو يأخذ بعضنا بعضا بالأحضان، وقد نمضي متناسين شيئًا في الماضي لا نريده!* أعتقد أني سأجرك إلى طريقي يا صديقي.. فأنا أحبذ ترك المفترق لآخرين!* كلمات خطرت في بال محمود، ووجد أنها على وجه كبير من الصحة ..

لم تغير حياة الثانوية شيئًا في الروتين اليومي.. إلا أنها مرحلة البلوغ، والنمو الأكبر..إنها نقطة تحول متأزمة بين محمود الطفل، ومحمود الشاب، وغيّاث الطفل، وغيّاث الشاب *!

يتذكر محمود أن أمه اليوم في العمل، فيترك غيّاث قبل المكان المعتادة لينطلق إلى المكتبة ..

يجلس هناك .. يقرأ كتابًا ..

المصادفة لا تأتي مرتين عادة.. فإن تكرّرت بعد المرة اثنتين، وبعد الاثنتين أُخر فاعلم أنها قدر*!

يقرع الجرس الصغير الموجود على المنضدة، ويترنّح محمود إلى الطاولة ..

كينا:مرحبًا.. لو سمحت هل أجد كتاب أصل الأجناس لداروين؟

يهز رأسه إيجابًا.. فترمقه بنظرة استخفاف لربما عن سبب قيامه بهذه الحركة، وعدم الكلام ..

يقدّم لها الكتاب مع ابتسامة تفضلي البادية على وجهه.

تأخذ كتابها وتخرج ! ويعود ليُكمل قراءته ..

قد يفهم الآخرون الأمور بشكل مختلف عنك..لربما لأنهم ينظرون من جانب آخر ..

في فترة الصف العاشر هذه كان محمود يعمل على جمع شتات كتابه .. مقررًا أنه لا بد من وضع اللمسات الأخيرة ..

في هذه الأثناء.. تتابعت زيارات كينا إلى المكتبة بشكل رسمي، ولم تخلُ من لقاءات عابرة في الطريق.. كل منهما يلقي التحية بابتسامة رسمية .. لا تتعدى اتساع الفم بضعة مليمترات ..!*

وفي أحد أيام شهر ديسمبر والثلج منتشر على الطرقات، عطلة العيد في بدايتها.. يجلس محمود على كرسي مكتبته.. يقرأ كتابًا، بعد أن تناول طعام الغداء مع أمه منذ حوالي الساعة، وانطلقت هي إلى المرسم في حين أتى هو إلى المكتبة..ما هي إلا دقائق حتى تدخل المكتبة فتاة يغطّيها الثلج، وترتعد من شدة البرد، وتقفز في مكانها مبدلة بين قدميها فاركة يديها*!

ينظر محمود بنظرات لا تخلو من التعجب!

إلا أنه لا يكلف نفسه التحرك عنه كرسيه، فالعم سالم يقف هناك، ويمكنه مساعدتها ..

تنظر الفتاة برقة إلى العم سالم..

كينا: كيف حالك عم سالم؟ وتلوح بيدها مبتسمة..

العم سالم كينا اللطيفة أنا بخير، وكيف حالك أنت؟

كينا: بخير تمامًا، جئت لأعيد كتاب أصل الأجناس.. فقد مضت مدة على استعارتي إياه..كنت قد نسيت الموعد المحدد لإعادته.. فأنهيته سريعًا *!

العم سالم: لا بأس يا بنتي .. تناول العم سالم الكتاب، ونادى.

العم سالم: محمود بُني ... تعالَ إلى هنا ..

قدم محمود ..

العم سالم: هلا أعدت الكتاب إلى مكانه يا عزيزي*!

يهز رأسه إيجابًا .. فتشتعل كينا غضبًا ..

يلحظ العم سالم علامات الغضب.. فقد كانت كينا فتاة لطيفة.. تكره أولئك المتعالين، والمتكبّرين.. كما أن لها لسانًا صارمًا.. لا يجيد تنميق الكلام أو المجاملات... بإمكاننا أن نقول إنها كطفل صغير لم يتلقّ التأنيب لأنه يلفظ الكلمات الحادة.. إلا أن كلماتها تبقى في إطار الاحترام..

فيردف العم سالم ..

محمود لا يتكلم!* بغض النظر سواء كان قادرًا أم لا .. إلا أنه لم يكلم أحدًا يومًا..

بديهيًّا.. العم سالم.. كان يضمر في نفسه فكرة أن محمود لا يحبذ التحدث، فذكاؤه اللا متناهي كان دليلًا.. أنه يستطيع أن يحدث أحدهم بكل طلاقة .. كانت هذه فكرته ..

تنظر كينا، وتحمر وجنتاها..ثم همس: جيد أنك أخبرتني بذلك *!

دون أن تكمل توقّع العم سالم ما كان سيحدث... كانت ستنفجر غاضبة في وجه محمود!* هل يا ترى كان محمود سيرد عليها في تلك اللحظة ويثبت شكوك العم سالم؟! أم أنه سيكتفي بنظراته الثاقبة*!

يعود محمود إلى كرسيه في حين تسأل كينا العم سالم، عن كتاب فيتجه إلى الغرفة المميزة ليُحضره لها.. تتجه بنظرها نحو محمود ولاح صوتها في البعيد: أنا أعتذر، لم أقصد ما بدر مني هذه الموجات الصوتية التي تخلل سكون المكتبة العميق، كدفء المدفأة في شتاء شديد البرودة *!

تلمع عيناه بحرارة..يغلقهما ثم يفتحهما!* وكأنه يخبرها لا عليكِ.. كانت عيناه تجيدان الحديث بمهارة ..

يعود العم سالم بالكتاب ..فتأخذه كينا، وتنطلق.

هذا الديسمبر البارد.. أصبح حارًّا فجأة، والثلج المشوب بكل ألوان الفتور!* أصبح دافئًا .. يبتسم ويخرج منطلقًا إلى المنزل .. يفكر بوجه أمه .. يا ترى هل سيكون الحائط جاهزًا اليوم؟ إنه متشوق حقًّا ليرى الرسومات التي منعته أمه من رؤيتها كل هذه الفترة**!

التشوُّق لربما هو شعور اندفاعي، بشكل أو بآخر إنه لا يأتي من الفراغ بلا قواعد.. فهو مرتكز على الأحداث التي نَقع بها يوميًّا، وغالبًا الشعور بالتشوّق لشيء فهو حادثٌ لا محالة، فالتشوّق ليس شيئًا نبتدعه بقدر ما هو شعور يضعنا الآخرون إزاءه!* ..

وأنا الآن موضوع في وضع راهن، إني حقًّا لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بماهية هذا الرسم؟

تمتم محمود..

قرع الجرس .. فتحت الأم:

البسمة الأولى المؤهلة بك تجعلك تشعر بالانتماء، إلى شيء ما، إلى شخص ما.. تبادله الابتسامة أوسع غالبًا..عيد سعيد.. كررها مرارًا.. بابا نويل في انتظارك!*

بابا نويل.. شجرة الميلاد .. العيد، نهاية العام وبداية عام جديد .. لا شيء يجري بمثل سرعة الأيام والعمر ..

الأم: هيا تعال لترى اللوحة، وجرّته من يده .

لم يكن يتوقع.. لم يتخيل أن اللوحة فضاء مليء بالنجوم، والقمر ينتصف السماء، ومن هذا هناك يبرز من كوكب الأرض .. أيعقل؟! يقترب؟!

الأم: إنه أنت حقًّا.

ينظر إليها متسائلًا .. إنها مبدعة في ترجمة النظرات ..

الأم: أنت شخص سيُغيّر الكون يا صغيري .. أؤمن أنك ستفعل.

***

انتهى العيد، ومرت الأيام بتتابعية غريبة .

يذهب إلى الثانوية ثم إلى المكتبة كل يومين تأتي كينا لتعيد كتابًا، والزوار الجدد كثر يعود إلى المترل، ويجد أمه في المرسم.. يجلس فيقرأ بضعًا من الصحف ثم يخلد للنوم .

في صباح مشمس من آخر أيام الصيف.. تدخل الأم فاتحة الستائر في غرفة ولدها ..

الأم: إنها السادسة والنصف.

محمود: ماذا؟ ينهض على عجل.. عليه أن يتناول فطوره، ويخرج ليجري ثم يمرّ بالساحة الخضراء ويتأمل هناك بعض الوقت قبل الثامنة والنصف ..

يسرع محمود وهي تنظر إليه ..

في عقلها آلاف التراجيديات..التي تقول: ابنك أصبح شابًّا .. إنه يكبر .

يعود فيستحم ويجلس مع أمه يتحدثان قبل ساعات عمله ..

الأم: ستدخل القسم العلمي؟

محمود: إني أفكر بذلك ..

الأم: إنه رائع .. وأنت متميز في الرياضيات والعلوم ..

محمود: كنت أفكر بالفلسفة على محمل الجد..

الأم: جميل

يسود الصمت الغريب.. الصمت ذاته الذي اعتادته الأم من محمود.

الأم: لقد كبرت كثيرًا .. ولدي المدلّل..

يستمع محمود فحسب..

الأم: سأجهز مكتبًا دراسيًّا وإنارة مناسبة في القبو ..

محمود: ماذا عن صالة السينما؟

الأم: دراستك تشغل المرتبة الأولى.

محمود مكتب غرفتي جيد.

الأم: اها!* ولكن ألن نغير غرفتك؟! لقد أصبحت بالية على أية حال.

محمود: سنفعل .. إن رسمت حائطها..

بشعور لا إرادي ابتسمت الأم: بالطبع، بادلها محمود الابتسامة..

تأتي الثانوية، ويدخلها بقوة.. ليلتقي بغيّاث ثانية بالقسم الأدبي من الثانوية..

يلوّح محمود بنظراته مؤهلًا ويتفاجأ بثقل مضاعف متعلق به ..

غيّاث: أين أنت؟ لم أرك منذ مدة؟ اشتقت إليك! كيف حالك؟

يهز رأسه مطمئنًا أن كل شيء بخير ..

ثم يكتب على لوحه: أنا أعمل في المكتبة..

غيّاث: آهاا.. جيد جدًّا.. لقد دخلت القسم الأدبي.. أتمنى أن يكون جميلًا ..

على أيه حال لم يُفضّل محمود الجغرافية ككل المواد.. كان يعتقد أنها ليست بالجمال الكلي الذي يحتله التاريخ أو معشوقته الفلسفة، لكن عليه أن يقضي معها سنتين لم تمر منهما إلا نصف سنة.. وفي الشهر الثاني أي فبراير حين كان محمود يدخل المكتبة تفاجأ بمن هناك.. كانت كينا

كينا: مرحبًا محمود.

يهز رأسه مؤهلًا ويلوح بيده ..

كينا: لقد عدتَ بعد غياب طويل.

تبتسم ثم تمد يدها بورقة..

– أريد هذا الكتاب لو سمحت... يبتسم بدوره.. لكنه أحس أنها ليست بسمة الموافقة.. ليست بسمة أي شيء ليست بسمة للكلام بل لها هي بسمة لكينا نفسها..رجف قلبه ما إن فكر بهذه الكلمات.. ما إن فكر أن يفكر بهذه الطريقة .

على عجل يحضر الكتاب، ويُقدِّمه لها ببرود دفعها أن تنفخ متذمرة من طريقته، وتخرج.. أرادها حقًا أن تخرج.. تهوي.. تندثر.. تتبعثر!* الأهم ألا يراها.. أرعبته فكرة الابتسامة التي لم يجدها في نفسه في السابق!

دائمًا ما نرتعب مما نجهله من التجربة الأولى.. لكن ليس محمودا!...فقط اعتاد على أن يعيش كل شيء كما لو أنه يحدث للمرة الأولى.. الحذر أساس لكن ليس خوف الجهل، لكنه خافها! لم يخف جهله بل البسمة.. خاف الشخص الذي وجهها إليه!* نظر في المكان.. غريب أنه يرى كل الكتب تسخر منه.. من خوفه من جهله المشاعر ..

يجلس على الكرسي في قلق إلى حين ينتهي الوقت البطيء.. الذي قَصَدَ ألا يمضي .. ألا يكمل الطريق، ليصل إلى الثامنة مساء ..

أخذ نفسه، وهو يلتقط الحقيبة، وهو يلتقط شتات الفكرة التي اندثرت في زوايا المكتبة ..

يسير، ويشعر أنه متوجه إلى ما بعد الشمس.. إن بيته في أقاصي الكون.. يتوقف ليفكّر لِمَ هو يخوض لا إنه لا يخوض إنه يغرق كليًّا في العبث!

لِمَ؟ وجد نفسه أمام أولى الكلمات التي لفظها!أمام أكثر الكلمات في الحياة استخدامًا فنحن لا نكف عن السؤال والتساؤل.. لأنه شيء متأصل في الطبيعة البشرية *!

يفتح باب المنزل.. فيجد أمه وقد غطت في نوم عميق على الكرسي بلا غطاء، وإنما حاضنة إحدى رسماتها.. لا بد أنه انتظرته طويلًا! يشعر بشيء من تأنيب الضمير.. تأنيب الضمير.. يفكّر.. يُخرج الدفتر الصغير ليكتب، بضعة حروف.. العناوين الرئيسة على الأقل.. إلا أنه لا يكتب سوى تأنيب الضمير.. غريبة، ولا يكمل الخطوط حتى يسقط الدفتر وينام على الكرسي المجاور لأمه!

يستيقظ صباحًا على همسات أمه الهادئة ..

الأم: محمود .. عزيزي .. ما رأيك بكوب حليب ساخن؟

يتغلف برداء قطني ناعم غطته فيه والدته وامتدت يده إلى الكأس الدافئة المتمركزة على المنضدة الزجاجية.. وإذا بأنظاره تهوي إلى الدفتر الواقع على الأرض.. تأنيب الضمير! أجل ما زال يتذكره!* .. الغرابة.. ما عناه بذلك.. واقشعر بدنه حين أعاد دماغه تلقائيًّا لحظة تبسُّمه لكينا يشعر أن شيئًا بداخله تفجّر.. لا يدري تفجر ماذا.. غضبًا .. أم حيرة؟!

والحيرة مصطلح واضح.. أن تجد نفسك في مكان لا تدري ما الخيار المناسب.. التوهان بين واحد واثنين، واقع بين نفسك ونفسك، لكن تأنيب الضمير هو ما يؤلمه .. هو أكثر ما آلامَهُ!* فالضمير.. هو الآلية الروحية التي تخبرنا بماهية الصواب!* غالبًا بإمكاننا أن نقول إن الضمير هبة إلهية فطرية، فضميرك الإنساني الفطري لا يسمح لك

بقتل أخيك.. أو بالسرقة!* غالبًا ما يتخدر الضمير في الواقع القاسي، ويصبح ما هو سيئ محبذًا، عندما يتم قمعه وإسكاته رغمًا عنه، بالتالي تأنيب الضمير هو الشعور الناتج عن ارتكاب خطأ ما .. تقصير ما .. هو دليل على عدم التصالح مع النفس الداخلية، أجل .. فحين تفعل ما لا ترضاه في قرارة نفسك .. ستشعر بالذنب الدفين*!

الأم: محمود .. فيمَ تفكر؟ بُني .. ما الذي يجول في ذهنك؟

يهز رأسه نافيًا .. أن لا شيء يُذكر ..*!

يتناول طعامه على عجل يستقل الباص متوجهًا إلى مدرسته الثانوية.. مفكّرًا بغرابة ابتسامته البارحة، يألف وجه كينا.. أصبح أحد الوجوه الأكثر شيوعًا في حياته!،ويفكّر..تحت أي مندرج تصنف تلك البسمة؟!

إلهي .. ألستَ الشخص الذي يعمل في المكتبة؟!

يلتفت ليرى مصدر الصوت.. معتقدًا أنه أصيب بمرض الكينا في دماغه..

ويدخل في هوة سحيقة من التفكير حين يراها.. يشعر أنه يأخذ وضعًا دفاعيًّا، ويتناهى إلى عقله آلاف الجمل التي قرأها مرات في الكتب.. لكنه يكتفي بتجاهل الصوت، ويتكرّر الصدى من آخر الباص .

كينا: محمود؟!

يلتفت إليها.. يحاول أن يخفي عينيه لا إراديًّا.. أن يشيح بنظراته من أن تلاقي نظراتها، وعندما ينتبه لنفسه يرمقها بنظرة باردة!* تدفعها أن تفكر مرتين.. لا بل عشرًا بعد الألف.. هل ترتاد ثانوية الأمل؟!

رمقها مطولًا ببرود مقيت .. بانبعاث لاذع يحثها على الابتعاد عن فراغه .. عن مجاله .. ثم يهز رأسه مؤيدًا*

لم تستطع رغم جهد محاولاتها أن تخفي تلك النظرة الطفولية التي تنم عن غضبها، لكن ما هي إلا نظرة كشفت عن إشاحته النظر بالنظر إلى الطريق فتجنبت الحديث ورحلت في سلام .. عند المحطة التالية قفز غيّاث للباص.

غيّاث: محمود .. أذاهب إلى قسم العلوم؟!

يهز رأسه نافيًا.. شيء من الصعقة يتملك غيّاث ثم يصرخ في الباص بدهشة..

غيّاث: لم وأنت عبقري في الرياضيات؟!

ينظر إليه محمود مؤنبًا فينتبه غيّاث أنه رفع صوته أكثر من اللازم..

يهز محمود كتفيه استهجانًا، وينتهي الحوار ببرود لم يعتده أيٌّ من الصديقين.

عشق محمود الفلسفة من صغره، وجد في الفلاسفة المثل العليا ..
كما أنه لطالما تخيل نفسه في مناقشات عديدة! ها هو القدر يجعله أقرب فأقرب من المرحلة الجامعية تلك التي سيتخرج عنها فيلسوفًا... لكن الفيلسوف هو الذي يدافع عن الفكرة.. أي فكرة يدافع هو عنها.

يتحسس صدره في مكان ما يتربع ما يدافع عنه.. ما بين القلب، والعقل.. معركة العصر ليست روحًا وجسدًا بل قلبًا وعقلًا .. خيارًا صائبًا وآخر لا *!

أهي مصادفة غريبة.. أنه بات يلتقي كينا في كل مكان كما لو أنها شبح يتتبع أثره.. لدرجة أنه بات يتوقع أن القدر سيجعلها تبثق من إحدى صفحات الكتب التي صُفت في مكتبته *!

***

في الـــ **26**- أيار كان يجهز بأوراقه لامتحان الجغرافيا.. كما أن اليوم هو عيد زواج والديه الـــ**20** ..كان يفكر أن أمه قضت سنتين كاملتين حتى رُزقت بطفل.. إنه لوقت طويل .. ثم يتذكر عادل الذي لم يسأل عنه منذ مدة .. كل الأمور قابلة للحدوث هاهي السنوات تمر .. كأنها لم تكن .. سريعة كمشهد يمر رغمًا عن المخرج في الفيلم الشيق .

ترى هل بقي على قيد الحياة ؟ أم أنه حقًّا دهس بسيارة وفارقها.. لربما آثر رمي نفسه من فوق جسر عالٍ... هكذا أفضل لليائسين علّه

يكون تزوج ثانية ورُزق بأطفال.. ويفكر في أن أمه حدثته ذات مرة عن رجل معجب بها، ولربما سيقوم بخطبتها.. إلا أنها الآن لا تريد الارتباط برجل يقيّد نسق حياتها غير المنظّم.. كما أنه فطن بمعاناتها بعض الأمراض في عضلة القلب!* لا بد أن كل هذه المآسي المحيطة به.. أثرت بشيء ما في نفسه الداخلية .. سيفعل المستحيل .. كي لا يتساءل نجله الأسئلة ذاتها! ما إن يفكر بابنه حتى تعود كينا إلى دماغه الضّاجِّ بالأفكار.. تحمر وجنتاه حين يكتشف أنه كان يكتب اسمها بدلًا من رسم خريطة الوطن العربي، ويعين نقاط الشوق بدلًا من نقاط حقول البترول.. أفزعه التشبيه الذي قفز إلى رأسه أن كينا هي شمس الحياة التي تدور حولها أرضه إنه لحقًّا أمر فظيع.. اختزال الكون بإنسان واحد.. لكنه لا إراديًا يهمس بتمنٍّ.. ليت ظلها يلوح غدًا، ويخط في دفتره.. الشعور الذي لا نعرف من أين بدأ وأين ينتهي نجده أم البدايات وأب النهايات وما بينهما هو الرضيع الذي بقي رضيعًا عقب آلاف السنين والتجارب! هذا ما لا نستطيع اختِزاله.. هذا الشعور هو ما يجب أن نتأنى به ولأجله، صوت المفتاح يفك قفل الباب ويحلل الأفكار.. لكنه لا يحلل الخيال.. يدثر الحروف لكنه يبقي على الصورة *!

الأم: عـــدتَ؟

صمت مقيت ..

الأم: هل أنتَ هنا ؟؟

محمود؟!، لا تعليق..

إذًا لِمَ أنيرت الأنوار، وتصدم بوجود ولدها أو كما تدعوه طفلها.. جاثمًا على الكرسي .. لا يصله صوتها..

الأم: أنت هنا؟

لا يجيبها.

تقف بجانب الكرسي وتمد يدها ملوحة أمام عينيه ..

فيهز رأسه ..

الأم: وأخيرا عدتَ للحياة *!

ينظر إليها محاولًا ربط الواقع بعضه ببعض!*

الأم: هل أنت هنا منذ زمن؟

يهز كتفيه مستنكرًا..

الأم: أنهيتُ الرسمة الخاصة بغرفتك! أتحب أن تلقي نظرة؟

لم يرفض محمود فقد كان دائمًا يجلس على نار التوق ليرى ريشة أمه المبدعة *!

كانت رسمة بحجم الجدار لكنها على القماش ..

وفجأة تسحب طرف الحبل فيملأ الرسم مساحة الحائط باللون الكستنائي .. الكتاب المسلط عليه بعض من نور، شيء من الدفء يحتل كيان الصورة .. ألأنَّ الكتاب تجلّى بعظمة هناك؟

النظر المطول .. التفكير العميق أكد للأم أنها أعجبت محمود أشد الإعجاب *!

محمود: رائعة أنت أمي! ..

تبتسم بشدة، فتبدوا له كطفلة !* تتمايل وتبتسم .. تقطع سلسلة خجلها ..

الأم: هيا لتناول الغداء ..

كان يومًا رائعًا لولا أن كتاب الجغرافيا أصاب محمود بالإعياء .. ففي خطوط الطول والعرض برز وجهها.. تلك التي لا يعرف لِمَ تشغل فكره على أية حال.

يطفئ الضوء منهكًا، ويغطُّ في النوم.. مدركًا أنه سيراها غدًا *!

ويغمض عينيه مرددًا: الحب الحب *!

لا يخفي استيقاظه بجفول.. عقب تذكُّرِه الغريب لآخر الكلمات التي لفظها.. قبل النوم.. الحب!* مرعب اسمه.. شائك حقًّا!* ما الحب على أية حال؟! وهل يحب كينا حقًّا؟ يقطع سلسلة أفكاره رنين المنبه.. السادسة!* يوم رائـــع جديد..شمس الصباح.. صباح فيروزي

بشمس خجله وسماء ترتدي طبقة الظلال.. صباح لم يكن يعرف أي وصف مناسب له.. خاصة عندما سمع من الشارع صوت فيروز الذي اندمج بانسجام مع زقزقة العصافير، يرتقي الدرج إلى المطبخ لـــيعد فنجان قهوة ..

الأم: غريب .. يبدو أنك استيقظت وحدك هذه المرة.

كان في داخله شيء يخبره أن هناك ما أيقظه.. أو بالأحرى .. من *!

ارتدى ثيابه عقب تناول الفطور مع والدته وخرج لينتظر قدوم الباص.. يصعد هناك .. يجلس قرب النافذة، وتأخذه الأفكار .

الحـــب: تراقص الدقات على إيقاع الموت البطيء، التوهان في اللاشيء.. الغرق في بحر اللا الشكل.. إن كان اللا شكل هو الطرف الآخر من المعركة المميتة *!

يطيل النظر في الصباح المشمس.. الشمس التي غطاها شيء من الغيوم !* الحب كيوم ضبابي الحقيقة !* رغم أنه جميل .. فإن البرود فيه قاتل والحرارة فيه قاتلة أيضًا.. غيوم كما الضباب تشوش الواقع لتلونه باللون الوردي.. تجعل كل شيء غارقًا في التناغم.. أجل الضباب يبعث على الراحة النفسية.

لكن الحب.. ليس دائمًا في نفس الدرجات!* أو لربما يتعلق الأمر بالأشخاص .

بديهيًا: أنا أحب أمي.. بل أعشقها، وأجلها..كما أني أحب غيّاث، والمكتبة، والعم سالم .. و..توقّف قليلًا،وعادل أيضًا، وتتراءى لـــه كينا فيحمر وجهه.. ترى ما شعوره حقًا تجاهها.. ما الحب كشعور على أية حال؟ ما الفرق بين حب الفتاة وحب الأم؟ لِمَ النقطة الدفينة في التقاطع؟ لِمَ؟ يتوقف عند هذه الــ (لم) كل مرة ؟ بصدق .. لم ترقص القلوب عند الوقوع في الحب رغم أن حب الأم هو أمر يومي بالنسبة للطفل أو الشاب !* الــ (لم) هذه ستصيبه بالاختلال*!

أنفاس أحدهم تختلط بأنفاسه!*، وقبل أن يبدي أي حركة.. يلفت انتباهه الصوت..

كينا: كيف حالك محمود؟!

ترى هل بانت عيناه في أوج لمعانهما .. أم فُضِح أنه غارق بالتفكير بها .. هي فحسب؟!

كينا: أأنت بخير؟!

يهز رأسه .. فتبتسم بحياء ..

أخذت تحدثه عن امتحان الجغرافيا، وعن روعة دروس الفلسفة .. وراحت تتحدث وتتحدث كما لو أن حديثها لا ينفد وكلماتها لا تنتهي.. كما لو أنها تتجاذب أطراف الحديث.. يبتسم، ويتدارك

الابتسامة.. يريد الهرب بشتى الطرق.. يشعر بصغر متناه.. يغضبه الشعور... أهو الحب.. من يملؤنا خجلًا وتقلصًا؟ يشعر أنه ينقبض على بعضه!* يتوقف الباص ويترجلان إلى المدرسة.. لِمَ بقيت قريبة وما زالت تحدثه؟!إلا أنه يسمع حدثها.. يستمع بتمعن لكنه لا يلتقط إلا صوتها ويعجز عن ترجمة الكلمات .. كأنها لغة من كوكب آخر .. الحب للأم هو الحب الفطري.. حب مُعظَّم.. يولد في ذات الآونة التي يبدأ بها تكوينك! يشعرك بالانتماء.. أما تلك الفتاة التي تهواها ليست كالأم .. فكلٌّ في منزلة، وكل في محلة .. هي الدولة الخليفة ..

يمكنني أن أشبه هذا بمسألة اللجوء.. فالوطن الأصلي هو الأم.. في حين أن الوطن الذي لجأنا إليه هو الحبيب الذي سيكمل نصف الأسرة في القريب.. كلاهما سيجدان الحب.. حب الوجود وحب الاستمرار!.. مترابطان رغم الاختلاف ..

كينا: لا تفكر كثيرًا .. خاصة إن كانت فتاة ما تكلمك ..

ابتسمت ممازحة ومشيرة في ذات الوقت أنه رغم اهتمامه بالحديث فإنه لا يعي كلماتها !

كل شيء مر على ما يرام .. وفي المساء على كرسيه المعتاد في بقعة قل ضوؤها.. مفكرًا .. الحب هو سلسلة التناغم بين المشاعر مع زيادة درجات الجنون!.. غريب أن الحب .. لا يعرف التعقل!* خطر هو بأيدي الصغار!* كما المفرقعات .. يمكن أن ينفجر بغتة!* ...

الانتماء.. الأمل، الحنان.. الاحتواء.. المسئولية.. الدليل.. النور.. الخوف لأجلك، ولربما الخوف منك يأتي في سياق الحب أحيانًا... فالخوف من الفقدان والنكران والخذلان لها أنواع الخوف الدفينة التي تأجج عقب الشعور بامتلاكك للشخص..، كل الدالات على الحب دالات على السعادة.. فالحب هو مزيج السعادة في كوب حياة زاد جنونها.. كعاصفة الزهور.. تعشق التنقل بين الرعد، والبرق.. تنتظر المطر بتوق، ويزيد عليه تأجج الجمر الذي يحول قلب إلى قطعة منصهرة.. عُرِّفت بالغيرة! كيف سأفسر معنى الحب وهو يتخذ كل تفاصيل المعاني؟! كيف وهو يتأصل في أدق تفاصيل الحياة؟!

تلك الرعشة الغريبة نادرًا ما نشعر بها .. رعشة الحب الأولى .. غالبًا هي رعشة ما بعد الولادة استقبالًا للحياة .. دقات القلب التي تهيج بلا سبب.. يكفي رؤية من نحب.. في البكاء، والجنون.. الحب.. هو الشعور المقدّس.. مالك المشاعر .. فهي كلها نقاط في بحره .. أو بالأحرى هي النقاط التي تكون بحره!* الكلمات لا تعبر عن الحب ! النظرات هي التي تفعل .. فهي التي تحمل صدق الدواخل .. تخـــاطُر الأرواح .. تلك العلامات السوداء الناتجة عن سهرك لارتفاع حرارة الشوق!* و...

ماذا تكتب يجفل القلم! يتداخل كل شيء في نفس واحدٍ، ما الذي يجب أن يفعله في موقف كـــهذا؟

يرفع يده بتثاقل عن الورقة.. يغلق الكتاب متصنعًا البراد وأن لا شيء يذكر .

يرفع عينيه تجاهها.. يبتسم..مؤهلًا..كانت ابتسامة مع رقصات! لم تكن عادية البتة! تحمر وجنتاها، وتحيز بوجهها ممكسة يديها بخجل .. يرفع حاجبيه متسائلًا عمًا بها، وهو موقن أن آلاف القوى الكونية مسلّطة على البقعة باهتة النور، ويظهر التلبك من نظراته.. تتلعثم في قولها لا شيء.. أريد هذا الكتاب فحسب! مدّت الورقة، كان كتابًا شيقًا حقًا قرأه محمود منذ زمن.. - رهان على قلب - يهز رأسه وكأنما يقول اختيار موفق.

لم يعد يرى معالم وجهها حينما غاص في السواد.. إلى أحد الرفوف البعيدة! ليحضر الكتاب ليأخذ نفسًا بعيدًا عن ضغط المشاعر.. بعيدًا عن قيودها .. بعيدًا .. عن خوفه من أن يبوح لنفسه بما في داخله .. ترى هل هذا هو الحب حقًا؟! أهو يحبها؟! لا بد أنها فكرة مرعبة! خاصة إذا كنا نخاف ألا نعرف حقيقة مشاعرنا .. جنون الحب هذا .. ثقيل جدًا !

يحضر الكتاب .. لا يدري هل حقًا ارتجفت يده حين مدها ليناولها إياه ؟! أم أنه ارتجاج في أركان روحه؟! أشعره كأن زلزالًا قد وقع .. لم يشعر بارتجافها.. لربما كانت الأرض البيضوية هي السبب.. كانا يدوران.. أحسا أنهما رأسان على عقب قُلبا.. تناولت الكتاب.. ومشت والخجل يقطر منها ..

الجنون المطلق.. الخوف، الرُّهاب.. الشوق.. التفكير..الانتماء .. خجل ذلك الجريء.. جرأة الخجل .. وخجل الجرأة .. كل التعقيد.. هذا هو الحب.. النفس الثقيل، والاستعداد لــلتضحية..النفس الثقيل في حضرة سيدة الحضور .. الصغر اللا متناهي .. تشعر كأنك رضيع بل جنين.. لربما أصغر لم تخلق بعد!.. الحب كما الحياة! واسع .. كما البحر..كما الغابة.. كما كل شيء..كتب الكثير.. والكثير الكثير... يشعر بهدوء في خضم العاصفة.. ويمر الوقت بطيئًا.. لكنه أيقن في تلك الرجفة التي هزت كيانه.. من أنفاسه التي فضحته .. نظراته ... كل ما يحدث له حين يلتقي بمولاه كان قد توجها بنفسه على عرش الحب .. اتخذها قديسة ! طبعًا فأسقف روحه هي أمه.. المرأة التي انبثق عن رحمها.

يلملم شتات أفكاره هذا الشتات الذي يعيشه للمرة الأولى.

ويسير في جنح الليل إلى المترل.. غدًا تنتهي المدرسة عقب امتحان الفلسفة! لا يشعر بقلق ولا حتى من الشهادة الثانوية في السنة القادمة.. لربما أيضًا تم تخدير مشاعره بلون وردي خريفي.. لم يكن يحبذ ألوان الربيع.. كان يرى في ضهجها وصخبها مبالغة على أية حال! كانت منفرة للعيون.. وألوان الصيف الحارقة.. كان لا بأس ببراد أبيض الشتاء.. فهو دافئ أيضًا لطالما فسرنا الألوان حسب مشاعرنا.. لكن ألوان الخريف تأتي حسب سطوقا.. تبعث السكين .. فما تساقطت أوراق الشجر إلا إنباءً بإعادة ولادة جديدة!.. مع أن

الصيف قريب جدًا فإنه لا يشعر بحره بل يجلجل هواء الخريف في أصداء روحه! يفتح الأبواب.. لا بد أنه تأخر.. ها هي الساعة الثامنة مساء.. لكنه وجد أمه مع مئزرها تعد الطعام ..

أصدر صوتًا عندما كان يخلع حذاءه نبهت أنه دخل المترل.. طلت الأم من المطبخ مع ملعقتها .

الأم: أهلا بالصغير.

الصغير؟! يبتسم وهو يعيد الكلمة مرارًا وتكرارًا.. وقالها بصوت مزق روحه.. بدون أن ينبس بـــكلمة صغير معك.. ورجل لأجلك.. تناولا الطعام وهو غارق في الأفكار.. كان كل شيء يدل أنه خارج الوسط المحيط.. خارج البشر والكلمات! وتدنو الأم من الكلمات .. إلا أنه يقطع حركة شفتيها المرتقبة بسؤاله.

محمود: ما الحب؟ ثم يستدرك: ما الحب بالنسبة لكِ .. أمي؟

تندُّ عنها ابتسامة رضا!* لـــربما لأنها عرفت أن ابنها يعتبرها صديقة له .. شعرت أنها فعلت الكثير من الأشياء الجيدة .. كم هي رائعة الثقة!

أن يثق بك شخص ما ليعود إليك في سؤال لربما يعتبره مصيريًا!

الأم: هو تأجج المشاعر على محرقة الحياة.. حين يختلط الجنون بالعقل، ويمتزج الأسود بآلاف الأضعاف المضاعفة من البياض..

كلوحة فيها عويل لروح شرقية عويل على أنغام فيروزيات.. هو ذلك الغطاء في ساعات البرد القاتلة طوقت عنقه.. الحب أنت.. الحب أنا.. روح تسكن الجمادات..يشعرنا بالسعادة..فجأة يتهدج صوتها ... تكبر داخلها آلاف الغصا، وتنطوي، وتنكوي، وتصبح يداها أبرد من الثلج.. تختنق وتخنق الكلمات معها.. بلا أنفاس.. كأن الموت احتل قلبها أو الأصح كأن الذكرى اغتصبت دماغها.. الحب لا يندثر مع الوقت.. الحب الحقيقي.. يذلك أحيانًا! يدفعك أن تتحمل الألم والإهانة .. لا تستطيع أن تنسى الحب كأنه لم يكن.. بل تتناساه ليبقى نُدبة بارزة في قلبك.. نافرة حد السماء يختنق الصوت.. كأنه أصبح بعيدًا آلاف السنين الضوئية رغم أنه يشعر بأنفاسها قرب أذنه.. لكنه شعر كأنها شبح بلا ظل ثقيل.. بتثاقل مرير.. بدموع اخترقت كتفه.. امتزجت بدمه كما النار.. كوت الشرايين.. ورفعت حرارة أعصابه الباردة .. التصقت بـــخده المحمر!، عادل هو الحب الحياتي الذي جلجل في صدى روحي.. الإنسان يعتاد أن يعيش الحب.. الأم والأولاد هو الحب الفطري.. شيء مرتبط بجينات تكونك منهم وبهم! أما الشريك فهو ذلك الحب الحياتي الذي ارتبطت فيه روحك لا جينات الولادة.. لكن ارتباط الروح غالبًا ما ينتهي به الأمر لحب فطري تبادل أولادك الحب ويبادلونك إياه، حب نابع من الانتماء.. من الجينات المتماثلة في مورثات دم واحد! يشعر

باختناقها.. أجل ذلك الاختناق هو الحب.. تلك الغصة، تلك البحة.. التجاعيد .. الخاتم الذي لم تخلعه إلى الآن .

وعندما سألها مرة في صغره عن السبب..

أجابت: طلاقي كان مجرد توقيع أوراق .. أما الحب .. لا يزال في ريعان شبابه في ريعان الشوق! يشعر أنه الآن فهم معنى الكلام .. كان أكبر من الحب.. كان فوق حدود سماء الشوق! فوق القدر الذي عفّر كل شيء! لا يدري كم كان قدر اللهيب الذي صدر عن يده عندما غطت يديها! عندما رفع نفسه عن الكرسي! وضمها بين ذراعيه! كان كل شيء حارًّا جدًّا.. حتى تثاقل يده الماسحة على رأسها.. تتالت الدموع، وتتالى تكعيب الاشتياق آلافًا.. يدرك حينها أن الحب.. هو ذلك الاتحاد للنبضات.. هو الانتماء إلى حضن ما.. تشعر معه بجنون الاهتمام..

أحبك.. أحبك أمي، كانت هذه الكلمة التي لا تعني لمحمود شيئًا.. تجلجل في روحه هذه المرة.. في لحظات الحب نجد صعوبة في التعبير.. صعوبة الارتباك والتجليل.. فنكتفي بكلمة تمزق أرواحنا ... تصرخ في هدوء صاخب !

- أحبك

يشد يدها بالجنون المطلق.. اختلال الحب، يأخذها في الليل الدامس.. إلى حديقة الشجيرات الخضراء .. يجلسان تحت الشجرة !* بعناق مطول يهمس لها:

– أنت أسقف الحب يا أمي.. أنت إله الحب!، يسود الصمت.. لكنه ليس مقيتًا فقد حمل آلاف الكلمات بين سطور النظرات.. أنا بجانبك دائمًا، وأبدًا.

نظرات محمود ملأت الأثير بهذه الجملة بهذا الشعور.. أنا هنا لا تخشي شيئًا.. أنا هنا بجانبك...كالريح كالجبال..راسخ.. كالإعصار.. كالدرع .. هنا في منتصف الليل .. يحملها وقد ضمها بقوة إلى صدره خوفًا من الهواء.. أن يلقي نظرة على وجهها الملائكي النائم .. يضعها في سريرها ويدثّرها، ويتلو فوق رأسها تراتيل الدعاء لـــيحميها الرب! وكأنه واقف في حضرة الشيء الأكثر أهمية في الكون! تنام ويغفو ..

***

لم يكن صباح اليوم التالي يحمل التميز.. حيث إن محمود استيقظ مبكرًا عن العادة ليكتب بعضًا مما توصل إليه في دفتره.. ثم يعد القهوة ليحتسيها وأمه قبل الذهاب للعمل!، وبعد تبادل نظرات الصباح البرّاقة .. نظرات معتادة، همس الأم:

– محمود .. تلك التي تحبها إن كنت موقنًا من ذلك وفي قرارة نفسك عقدت العزم أن تكون هي من ستكمل معه حياتك فلابد أن

تصارحها كي لا تعيش على وهم خيالها، وهي لا تفكر بك حتى! أو تعيشا عذاب الشوق معًا .

يأخذ كلام أمه على محل الجد بل على محل الخبرة.. فلا تستطيع أن تأخذ نصيحة العشق إلا من عاشق كـــأمه ... عاشق نقي .

***

في الباص التقى بـــكينا التي احمرّ وجهها حين نظر إليها، وكأنها بدأت تتعلم قراءة نظراته، وفهم صمته .. أشاح بنظره مرتبكًا! وإذا بـــغيّاث ..

نظر في إثرها غيّاث صديق رائع! لم يستطع تحمل المزيد من الألم، لا بد لـــقنبلة الحب أن تنفجر.. متدثرة بالصمت.. أيحبذ أن يخبرها الآن؟! أجل .. فالحب لا ينتظر.. يميل باتجاه غيّاث مخبرًا إياه أنه لا بد من لقائهما عقب الامتحان!، ويخط تلك الجمل لـــكينا التي كادت تكتشف دون أن يكتب ما أراده.

وفي المكتبة ... الساعة الخامسة! على الكرسي المعتم.. بلا أنوار القراءة تربع محمود.. تلك النقطة التي تبث البراد لكل أنحاء المكتبة.. كما لو أنها ساحة المعركة القاتمة! يدخلون وتُقرع الأجراس المعلقة على الباب.. شيء ما يشعرها بانقباض في قلبها.. انقباض مزعج فـــهذه الوضعية تراها للمرة الأولى .. الصقيع صادر من حمم الصيف .. بخطى متثاقلة يتقدمان .. شاعرين أنهما يخترقان حرمة وحدته ..

غيّاث: هل أنت بخير؟ يهز كتفيه مستنكرًا..

كينا: محمود ... هل ..؟ وقبل أن تكمل الكلمات يكون قد نهض من مقعده .. العم سالم يتابع بتمعن .. في حين أن المكتبة خاوية على عروشها إلا من الكتب التي أحاطت محمود في كل مكان ..

يسود الصمت .. صمت مزعج .. استطاع فيه محمود أن يسمع دقات قلبه ..

محمود: لكل شيء في الحياة بداية! الحب والحرب.. المشاعر الممتزجة في الأثير ككأس خمر .. كل منا خلق من شيء ما لا شيء يأتي من لا شيء .. في ساعات الكلمات .. كاد يُغمى على غيّاث في حين اعترت كينا الصدمة الفادحة.. كان محمود بصوت حكيم .. يخترق العقول والقلوب معًا.. يجلجل في زوايا النفوس كلامه العبثي.. ومشيته التي توحي إليك .. أن ملاك الهداية نزل إلى الأرض .. وعيناه زادتا حدةً وزاد لونهما الفضيّ إشعاعًا.

محمود: وفي حضرة المشاعر.. دعيني أعترف بأنك استحللت مرتبة القديس، والقديس هو الأبدية، والأبدية هي الحب.. فهل تقبلين أن نكون الأبدية معًا؟ لا أحد يدري كيف ذابت طبقة الجليد التي غطت عينيه.. فأصبحتا تشعان حممًا...في القاعة التي اعتراها الصمت، وتخللتها الدهشة ..

يرى إشارات الاستفهام ويفهمها ...

محمود: أردتُ فقط أن أقول هاتين الجملتين قبل أن أعود إلى صمتي الجزئي .. فلكل شيء وقت مناسب .. ولم يحن الوقت المناسب بعد.

غيّاث: أيها الأبله .. صوتك المكلل بالحكمة .. إنه يشبهك ويشبه غموضك.

شك محمود .. أن دموعًا ترقرقت في عيني غيّاث تلك البرهة .

كينا .. كانت جافلة .. في حين ندت عن العم سالم ابتسامة تقول.. توقعت ذلك!

كان لكينا عقل متفهم.. بل حتى أنها أعجبت بالقوة التي أظهرها محمود.. فقد استطاع أن يمضي 17 عامًا .. بدون أن يتحدث .. على الأقل ليس مع الغرباء .. كان هذا دليلًا على قوة جبارة..

كينا: والآن ؟ هل ستحدثنا دومًا؟!

رفع كتفيه مشيرًا لا أدري..

كينا: هل لي ولو بيوم واحد في الأسبوع لدقيقة واحدة .. أستعير فيها صوتك ..وأعتكف فيه ..كضريح عشقي لك؟! ..

نظر محمود بتمعنٍ إلى تفاصيل وجهها .. إلى احمراره .. إلى القوة الجبارة التي تدفعها للكلام.. قوة الحب هذه.. فيرفع حاجبيه ميالًا بهما إلى جهة اليسار .. عانيًا بذلك ربما .

ساد الصمت والأفكار تجول في كل مكان.. يبدد الصمت فتح بانة لباب المكتبة .. محمود .. الرسمة جاهزة .. نظرات الجميع تعلقت بالباب ... لربما ويمكن .. هل يكملون الحديث أم يختفون ... ليتهم يتلاشون قبل أن تسألهم عن الصدمة العارمة التي اعترت وجوههم .. محمود تفضلي أمي ..، ثم أشار إلى كينا .. هذه الفتاة التي أحببت.

ابتسمت الأم بسماحة.. أتمنى لكما الحياة الهنيئة، ابني لك هدية.. اعتني به صغيرتي.. فهو وحيدي المدلل .. اجني كما لم يجنِ عاشق من قبل.. وبجلي صمته..كوني مكاني إذا طواني الغياب يومًا.. سيدة فاضلة حكيمة.. لأجله،ومعه طفلة ..، بادلتها كينا شعور الراحة.. سأحرص أن أجعله على قدر من الراحة.. على مقدرتي.. أن أستميت لأجله وأحيا به!

تبادلتا الابتسام..كأنهما التقتا في نقطة العشق منذ زمن.. كأنما تعرفان بعضهما البعض منذ عمر طويل ..

الأم: أنا بانة .. بإمكانك زيارتي في منزلنا .. محمود في المكتبة طيلة أيام الصيف.. احتسيا القهوة..،كان الجو لطيفًا..فيه شيء من الأسرية.. يحوم فوق المكان .

محمود: العم سالم.. الندوة التي حدثتك عنها مرة! ريد أن تنفذ في نهاية الصيف..

أحس محمود أن الجميع وجه نظراته إليه.. أهذا معناه، أنه سيتحدث على الملأ؟! وإن كان هذا صحيحًا .. فما الذي سيقوله يا ترى؟

***

مضى الصيف بشكل عادي الصمت ذاته.. لربما كلم كينا مرة واحدة بصوته في الصيف.. حين سألها عن جرح أصاب يدها .. في باقي اللقاءات التي كان غيّاث أحد أركانها ... كان الصمت ولغة العيون هي اللغة السائدة.

وما إن أعلن الشهر الثاني من الصيف يوليو نهاياته وأقفل آخر أيام الأسابيع الحارة حتى أنهى محمود كتابة كتابه صراع الذي يتحدث عن الصراع الأبدي بين المشاعر.. كل أنواع المشاعر.. خضع الكتاب لـــتدقيق محمود نفسه وإعادة صياغة بعض الجمل.. في منتصف أغسطس وقبل **5** أيام من الندوة التي ينتظر الجميع بتوق لمعرفة ما محتواها**!**

كانت الأم في أفضل حُلةٍ.. كما تألق محمود بزيه المكلل بالسواد.. وارتدى غيّاث أرقى ثيابه المُرصعة!.. قرع الجرس هذا أصاب محمود بتوتر،وجعل وجنتيه تتضرجان باللون الأحمر.. ضحك من شكله غيّاث خلسة!، ويفتح الباب رجل صغير الجسم أشيب بعينين زرقاوين.. نظارته أعطت عينيه جمالًا زائدًا على غير العادة، تبتسم بانة ابتسامة ودّ. مرحبة بذلك الذي فتح لهم الباب:

تفضلوا .. أهلًا وسهلًا .. تتصدر الأم المجلس .

ثم تمسك الحديث بكل قوة.. كما لو أنها اعتادت التحدث بهذا الشكل .

الأم: لكل أسرة بستان.. لكن لبستانكم زهورًا يانعة! وقعت عين ابني على إحداها، ولأني أومن أن الحلال هو أفضل الطرق للتوفيق بين المتحابين.. جئت أطلب منك برحابة صدر.. أن تقبل بابني محمود.. زوجًا لابنتك كينا.

حتى محمود ابتسم تلك الابتسامة الخجلة من بلاغة أمه.. إنها رائعة بكل المقاييس، نهض الأب، وصافح محمود.. فقد حدثته كينا مرارًا عنه !

– كينا صاحبة القرار، وأنا مذعن لرغبتها

بلا شك كلنا نعرف جوابها وافقت وبقوة، وبين التهاني وفرح الأمهات وتبادلهن التهاني بالعروسين الشابين .. مرت ثوانٍ .. مر فيها صمت ثقيل كأن القدر يهيئ لمحمود الوقت المناسب ليلقي كلماته .. بالحكمة ذاتها، قوة الحضور ذاتها !

محمود: سيأتي المخوّل من المحكمة عقب ساعة واحدة.. لينقل مولاتي لحرمها الملكي.. لكني سأؤجل الحفل مبدئيًا ثم أتشرف بدعوتكم للحضور إلى مكتبة العم سالم يوم السبت القادم تمام الـ 5

يتوجه بنظره إلى مخطوبته.. والتي ما هي إلى ساعة حتى تصبح في كنف.. لا تتجملي ولا تتزيني أحبك كما أنت .. وأستسمحك عذرًا... لجملتي الثقيلة .. لكن سأقيم لك حفلًا كبيرًا ... تكونين فيه كما تشائين بين صديقاتك، أما الآن ابقي أنتِ كما أريد أنا، احمرت وجنتاها، والكل في صدمة .. لكن والدته توقعت هذا .. لذلك لم يبدُ عليها الاضطراب ..

ولكن...!

كينا: بـــابـــا. أرجوك! وتلمع عيناها رجاءً ثقة بـــمحمود .. ثقة لمجرد وجوده هنا ..

ولكن معك ساعة حتى تهيئي نفسك !

ويضج المنزل بصخب.. ترجوهم كينا خلالها أن يهدءوا، فمحمود لا يحب الأصوات المرتفعة! تم كل شيء بسلاسة .. ونقلت كينا إلى خانة محمود .

محمود: دعيني أعلن في هذا اليوم التاريخي .. أني أعشقط مولاتي.. وسأحبك وأحب أطفالك.. وأقف إلى جانبك.. أدعمك لكونك أنتِ وأحارب معك ولأجلك.. أصونك وأصون عهدك وتكون علاقتنا مبنية على الثقة والإخلاص.. أن أتذكرك مع طلوع الشمس ومع الغياب.. طالما داخل صدري نفس ثقيل ونبض ضئيل! ولي عندك رجاء ... يحول نظره إلى أمه ..

لي في الحياة مُلك واحد .. أمي .. اعتبريها والدتك .. ولا تُريقي دموعها.. احفظيها غاليًا كما سأحفظك .. وإن فرقني عنكم الغياب.. اعتنِ بها.

ما إن أنهى كلامه .. حتى تشبثت بعنقه .. كما لو أنها انتظرته أن ينهي كلامه على جمر..

كينا: أعدك .. حدّ السماء..

تناولوا حلوى خفيفة كان قد أحضرها محمود معه... ثم وقبل التاسعة مساء.. اعتذر محمود عن ضرورة رحيلهم، وتمنى يومًا سعيدًا لمولاته، وأهلها.. ووضح في ذات الوقت أنه لا يمكن أن يلتقيها حتى انتهائه من تقديم كلمته .. ثم يراها بعد ذلك .. وألحّ على غيّاث أن يأتي كما ألحّ عليها!

***

السبت .. تمام الرابعة .. كانت القاعة تضج بالمستمعين .. لربما لأنها المرة الأولى التي تعلن فيها مكتبة الحي عن ندوة .. مما جعل الجميع يشعر بالشوق لمعرفة عمَّ ستتحدث .. ولا ينفي محمود أن البعض جاء هازئًا بالمكتبة التي أصبحت مشهورة رغم الحي الفقير .. ورغم أنها ما زالت بلا اسم حتى الآن ..

ضجت المكتبة بالناس والهمسات .. ماذا الذي سيجري؟ ترى مَن سيلقي الكلمات؟.. وبدأ العد التنازلي للثواني الأخيرة على ساعة

محمود الرقمية.. ثلاثة.. اثنان.. واحد... كما لو أنه انبثق من السواد على طرف المنصة اعتلى الدرجات.. كان صوت خطاه الواثقة... يخترق الظلام والعيون تترقب .. ترى أي وجه سيخرج للنور بعد لحظات، وعلت الهمهمات عندما كان الوجه محمودا!*، ما الذي يفعله هذا الصغير في الأعلى؟!، إنه غير قادر على الكلام!، ما هذه السخرية؟ وبراد يقف خلف مكبر الصوت ...

محمود: أرجو الهدوء.. فليس من اللائق أن تتعالى الأصوات في المكتبة.. هذا انتهاك لحرمتها لربما عقدت ألسنتهم .. لذلك التزموا الصمت وعمَّ الهدوء أركان المكتبة .. نظر براد إلى السكان

محمود: بلا مقدمات.. لنعلن معًا وبصوت عالٍ.. كلمات الاعتراض .. بلا غضب .. كن عاقلًا ... فالغضب والاعتراض ليس مشروعًا سياسيًّا .. قف قبالة مرآتك .. واسأل نفسك عما قدمته لحياتك؟ ماذا بشأن نجلك؟! ما الكتب التي يقرأ؟ ما الأفكار التي ترده؟! هل فكرت يومًا ... عن حقيقة الكون؟!

لا ترضَ بالحياة المقسومة! لا تحمل القدر شيئًا من كل شيء! .. قف موقفًا ثابتًا.. لا بد أن نغير الحياة.. أن ننظم الصراع.. ونقوي وطأته..، أخذ يتحدث على المنصة بثبات على ضرورة كوننا نحظى بدماغ منفتح.. فالذكاء الدراسي لا يهم بقدر أهمية استراتيجية التفكير .. وبضرورة تعويد الطفل على القراءة.. كما نوه أن المكتبة

ستعين يومين للأطفال لمساعدهم على اختيار الكتب المناسبة وقراءهما، وفي نهاية الحديث خاض قليلًا بضرورة التمسك بشعور الأخوة والحب اللذين ينيران حياتنا. وأنوه أننا أسرة واحدة باختلاف أدياننا وأعراقنا.. فأصلنا من الجذور الأولى واحد.. لذلك لننشر الحب والإخاء في المجتمع، ونعلم أطفالنا أن يحبوا الآخرين كما ذواقم! وبذكر الحب والأطفال.. هل لي أن أطلب منك يا مَنْ تسمعين .. أن تشاركيني فرحة مترلي.. وأن ترتدي خاتمي أمام المدينة بأسرها .. تفتح كينا عينيها في دهشة في حين يصفق الحضور إلا تلك التي اعتصرت خجلًا.. فترل محمود ممسكًا بيدها وألبسها الخاتم المنقوش بتواريخ عديدة عقد قرانهما.. تاريخ اليوم حين ألبسها الخاتم .. وتاريخ يأتي في أول أيام المدرسة.. حيث وعدها أن الزفاف سيكون في ذاك اليوم، وكل الصديقات التي تحب سيحضرنَ هناك! زاد خجلها خجلًا حين همس.. من الآن فصاعدًا سمعًا وطاعة .. ولكن لغة العيون أجمل وغمز لها فذابت وتبعثرت.. ولملمت شتات نفسها على أصوات تصفيقهم.

إلا أن صوت العم سالم لاح من بعيد عليك بالحذر يا بني.. فأعداؤك من الآن كثر.. وإضمار الشر هو موهبة بشرية.. حين تعتري الإنسان غيرة ... والغيرة هنا بمعنى الحسد يا ولدي ... فعدم القدرة على امتلاك الشيء تدفعك بجنون إلى سلبه ممن يملكه، نظر محمود نظرة ملتهبة للعم سالم.

سيكرهونك .. هنا نظر محمود.. صحيح أن آلاف المشاعر لم يتحدث عنها إلا أن نقيض الحب لم يرد بين سطوره، الكره ... الشعور الأسود ... المعاكس تمامًا .. لقوة الحب .. الحسد والحقد .. اليأس الألم الأسود .. الغضب .. كلها أسس تكوين الكراهية .. المقت الذريع .. والفكر الشنيع .. الكره وليد الفظاعة .. هوة سواد سحيقة تجرُّك إليها .. تفقدك طعم الأشياء ..، هذا ما فكر أنه سيكتبه في كتابه .. لكنه وقبل أن ينسحب وزوجته من المكتبة نظر للعم سالم.. حب عدوك هي أولى طرق الانتصار .. كما أن اسم المكتبة من اليوم .. صراع ... فالحياة صراع أبدي يا سادة وجر الجميلة من يدها واختفى خلف الريح..

***

في ذلك الحين وتلك الفترة أصبح محمود حديث البلدة .. الشاب الذي في صوته نبرة الحكمة تلك.. فأحبه البعض وتمنوا لأنفسهم أطفالًا مثله،وكرهه البعض .. مبررين أنه يلوث عقول الناشئة بالكلام المتطرف !

وقبل زفافه بثلاثة أيام وضع النقطة على السطر الأخير في كتابه صراع ..

والذي ختمه كالتالي: النقطة الموضوعة في آخر هذا السطر نهاية كلامي وبداية كلامك أنتَ، فما قولك؟

بدون أنه يغوص في تراجيديات الكلام.. ضم أوراقه في ملف، وانطلق ليحدث بعضًا من دور النشر علّه يجري اتفاقًا مع إحداها!
وما هي إلا فترة يومين حتى رضيت دار النشر الأشهر في المدينة! والتي عُرفت منذ فترة على النطاق الدولي وليس المحلي فقط.. بنشر كتاب الشاب الذي أبهر الجميع برزانة عقله.. متفقين على تاريخ معين للنشر.. ابتسم برصانة، وأكمل طريقه إلى أحد المحلات يشتري ثوبًا لزفاف غدٍ .. ويوصي أحد المحلات بباقة زهور أيضًا .. ثم عاد إلى المنزل ..

الأم: عريس الغد .. هل كنت تودع آخر أيام كونك عازبًا؟!

محمود: كنت في دار النشر.. حدثتهم عن كتابي .. واتفقنا على بضع تفاصيل .

الأم: رائع .. جهز نفسك لزفاف غدٍ جيدًا.

يضحك محمود .. كأن الأمر أثار شيئًا من لا مبالاته .

ويرتقي الدرج لينام بين جدران الغرفة التي أعدت جدارها أُمُّه .

لا بد أني سأقطن في هذه الغرفة مع كينا .. فهي ذات مكانة خاصة.

ويغط في نوم عميق .. يستيقظ صباحًا .. يلقي نظرة سريعة على ساعة يده!– الرابعة والنصف فجرًا – لا يزال أمامه ساعتان قبل ميعاد المدرسة .

أمه وغيّاث سيكونان هناك كذلك عائلة كينا.. يسرح شعره ويرتب البذلة المنمقة ويرش بضع قطرات عطر نوى أن ينقلها إلى فستان عروسه ركب سيارة الشركة التي استأجرها وسائقها معها .. ثم انطلق إلى مترل كينا ليصطحبها .

حتى السائق لاحظ الجمود الذي أصاب عينيه .. عندما رآها بفستانها الأسود الملائكي .. بأكمام الدانتيل والرقبة الدانتيل العالية .. كما أن نوعًا من القماش ذاته غطى الفستان كاملًا وأطول قليلًا من النهاية النافشة، كما أن سوار الألماس في يدها كان رائعًا .. وحذاؤها الملامس للأرض خمري اللون مماثلًا لون أحمر شفاهها، شعرها المرفوع كـــذيل الحصان.. مشت بخطى واثقة، كبرياء أخاذ لكنه ممزوج بطفولية نظرها .. شعر أنه في غيبوبة وعطرها هو أكسجينه .. غيبوبة الحب هـــي .. ترجل من السيارة ليفتح لها الباب .. ما إن رأته حتى أسرعت الخطى وضمته بقوة .. احمرّ وجهه .. فـــغدا قاتمًا كلون ما زيّن شفتيها ..

ثم تحركت العجلات الساكنة حاملة ورد الخدين.

يصلان إلى المدرسة التي لا تعي ما يجري.. إذ ينبهر الطلاب بارتجال محمود من السيارة فاتحًا الباب لكينا.. ممسكًا بها يدًا بيد.. يسيران بين الحشود، وعلى إذاعة المدرسة يعلنان زفافهما وأن الحفلة ها هنا .. ويشعلان موسيقى هادئة، ثم يأتي رجل بباقات زهور كبيرة

سوداء.. تأخذها كينا .. فيخرج من جيبه وردة بيضاء ويضعها بين السواد .. هامسًا:

- هذه حياتي - مشيرًا إلى السوداء منها - وهذه أنت..

ثم يضيف:

- الورد الأسود بالنسبة لي دليل على الحب الأبدي.. اسمحي لمتواضعٍ مثلي أن يحب جلالتك العمر كله..

تبتسم:

- أحبني بجنون جلالتك .. فجلالتي .. أصبحت ملكة لأجلك.

بعض الحلوى وزعت على الطلاب الذي كانوا يستمتعون بالكلام والموسيقى ..

وما إن أصبحت الثانية ظهرًا حتى عادوا إلى المنزل .. مع العائلتين الكريمتين .. تناولوا الغداء واحتسوا الشاي .. كما باركت أسرة كينا العروسين وارتحلوا .. وقصدت الأم المرسم مخلية البيت لهما ..

محمود: أُحبِّذُ الهدوء .. أكره الضجيج، هلّا جلسنا بصمت؟!

يُجلسان بصمت قرابة نصف الساعة .. ثم يبدده محمود قائلًا: سينشر كتابي بعد ما يقارب الشهرين!

تأججت عيناها ببريق التهاني .. بريق الأمل ذاته .. يبتسم محمود ثم يجرُّ يدها ... خارجين من البيت الذي أخذ الطابع الأثري .. وينطلقان

كينا: إلى أين؟

يضع يده على فمه مشيرًا أن عليها بالهدوء..

يأخذها ليريها تساقط أوراق الخريف في الساحة الخضراء .. مشهد الورق المتطاير .. كان مشهدًا رائعًا ..

ومر الشهران سريعًا، وفي بدايات الشهر نوفمبر .. كان غيّاث يسير في السوق، وإذا به يرى كتابًا بعنوان صراع محمود الزغيب كاد يجن حقًا .. اشترى نسخة من الكتاب وراح يركض .. قرع باب مترل محمود لاهثًا .. نظر محمود .. إنه غيّاث فتح الباب .. ونطق كلاهما لدي لك خبر مفاجئ.

غيّاث: ماذا لديك؟ لم يكن محمود من النوع المجادل.

محمود: تسعة أشهر وستصبح عمًّا، أخذ غيّاث يرقص فرحًا .. فرفع يده دون أن يشعر .. ليظهر الكتاب .. محمود يحاول أن يهدئ من روعه لينتشل الكتاب.. دعني ألقِ نظرة هنا استعاد هدوءه ليسأل: علامَ؟ ويشعر بالغضب عندما يدرك أن يده كشفت الكتاب .. فيعطي محمود إياه على ممتعضًا .. ينادي محمود على أمه وزوجته ...

اللتين تبديان فرحًا عارمًا.. يدخل غيّاث ويأخذهم، الحديث حيث قرر محمود أن يقيم حفلًا على شرف مولوده القادم والكتاب الذي بدأ بالسير على أوج الشهرة ..!

وكان له ما أراد حيث جمعت الأمسية الأسرتين.. تسامروا وتعالت ضحكاهم... وكل شيء كان يرتدي قالب الهدوء، فكل شيء يتبع نسق محمود! نسق العقلانية الممزوجة بالجنون.. جنون كـــينا !

خمسة أشهر تلت نزول الكتاب.. عم المدينة فيها والمدن المجاورة بعضًا من فوضى.. فقد كان وحسب طلب محمود.. صناديق كـــصناديق البريد تخول السكان من وضع آراءهم فيها، فقد أثر الكتاب في الرأي العام والمنظور العام للعلم والتعليم .. كما أنه أيقظ الناس من ثباتها... ارتفع رواج الكتاب في الشهر الثامن من نزوله بشكل غير متوقع مما أثار الغيرة والحسد وشعور السياسيين والسكان العاديين أيضًا بكون قلم محمود يشكل تهديدًا للجيل الصاعد .. وصلت في بدايات الشهر الثامن تهديدات خطية لـــمنزل محمود كان يتعمد إخفاءها عن أمه وزوجته التي قاربت على الولادة .. كما أنه استمر في الكتابة في عمود الجريدة الأسبوعي .. وتحوّلت التهديدات إلى المكالمات .. وفي الأسبوع الثالث .. حاول أحدهم اغتياله .. من خلال دهسه بسيارة مسرعة إلا أن ذلك لم يفلح .. فقد قفز محمود بسرعة متفاديًا السيارة المتهورة... !

كان خوف المرأتين يزداد.. فهما ليستا من البلاهة بقدر لا تلاحظان كل هذه التهديدات، والحياة على القلق المتخفي بالابتسامات.. لكن أحدًا لا يستطيع أن يهمس له: توقف عن الكتابة، فمحمود والقلم كما محمود والسماء والعصافير .. انتماء ... الأم توقفت عن الرسم .. وزاد مرضها، فكثرت أدويتها في الآونة الأخير .. وقد هل الشهر الثامن من العام .. ذات اليوم الذي عقد فيه محمود قرانه على كـــينا.. خرج محمود وكينا ليشتريا بعض الثياب الجديدة لأمسية تليق بابنهم الذي لم يستقبل الحياة بعد، وطلبت مرارًا كينا أن يحدثها محمود ثانية عن ولادته! مرددة:

– ترى هل سيكون لابننا البدايات ذاتها؟! فابتسم محمود .. كأنما أراد القول إنه يحبذ أن تكون له بداية خاصة ينطلق منها. فجأة وكما لو انبثق من العدم رجل في منتصف الطريق، أوقف محمود السيارة بفرامل قوية ممسكًا امرأته .. خوفًا من قوة الفرامل عليها .

ينظر محمود إلى الرجل الملثم ثم إلى امرأته التي تكاد تلد .

محمود: العقل لا يُهزم إلا بالعقل.. لذا دعنا من الأساليب الرجعية ولنجلس على طاولة حوار نُصفّي بها معتقداتنا.

- لا سبيل للحوار مع أولئك الذين يدنسون عقول أجيالنا .. أولئك الذين يريدون تغيير المنهج الذي بقينا سنوات نحشوه في رؤوس الأبناء جيلًا بعد جيل – قالها الرجل ذو الصوت الأجش وفتح باب السيارة مطالبًا محمود بالخروج ..

يخرج بثقة رغم أنه يعرف ما كماليات ما سيجري... أين ستذهب زوجتي؟ لا أريدها أن ترافقني إلى جحيمي؟

- ستشاهد من صفوف المتفرجين عقاب الذين لا يرضخون للقانون المسنون ويفكرون بطريقة لا تتماشى مع الطرق المسنون عليها.. زاد حدةً ذلك الأجش.

افترق عن كينا في تلك اللحظة .. تلك التي أيقنت أن شيئًا غير صحيح يحدث .. تلك المنصة الضخمة التي غطاها الستار .. تُرى هل هي مفاجأة بعيد زواجهما؟! ما الذي يعده لها محمود؟!

تترقب بشغف وتوقٍ وعيناها تجولان ... لِمَ كل هؤلاء مدعون .. لربما شدهم المنظر الغريب للمنصة الضخمة في ساحة المدينة.

فجأة فتحت الستار.. لينعقد لسانها، وتشعر بخوف كبير... فمنظر المقصلة التي تجلت في منصف المنصة لم يكن مضحكًا ألبتة .. بل كان شنيعًا ومرعبًا... زاد اضطرابها اعتلاء محمود المنصة... كان ينظر للجموع كلها .. لكن كل من في الأسفل أيقن أنه يبحث عن شخصٍ ما.

لاح وجهها حقًا كما باقة الزهور. النور الوحيد في حياته.. القمر في العتمة الحالكة.. بكل ثقة.. دون ارتجاف واحد في حباله الصوتية.. التي حاكت الحروف حياكة متقنة .. لا يهم .. ما سيجري الآن .. لربما هي بداية حياة أخرى في الفردوس أو في الجحيم والفرق بينهما

واضح .لندع اليوم صوتنا موحدًا، ونخبر أولادنا بضرورة الاعتراض.. بعدم قبول السيطرة الدماغية.. يشيح بعينيه عن الجموع إلى تلك التي أغرقتها الدموع.. سأحبك في الحياة البعدية أيضًا .. أعتذر منك نجلي العزيز.. لأني سأضعك في خضم ذات دوامة الأسئلة التي وضعت فيها قسرًا .. لكنك ستعرف أني تركتُ مرغمًا.. أني تركت العالم في سبيل الفكرة!.. دافع عن الفكرة يا ولدي .. فهي الأهم .. لم تعد تعي ما يجري من أثر الدموع .. ثم صرخات المخاض الأليمة؛ تعلو صرخاتها .. وبين الآهة والأخرى تموضعت كلمات وعد البقاء على العهد سيحمل.. اسمك .. سيكمل الطريق سيارة الإسعاف أتت لتأخذها لكنها رفضت ستبقى للنهاية .. صارخة.. أحبك ..، تذرف الدموع في إثر الرحيل.. تلعن في قلبها الاستبداد، وتصرخ أعلى أحبك يقيدون ذراعيه .. وفي اللحظة التي يهمون فيها بتغطية وجهه يحيد برأسه.. لقد رآها.. أمه.. الشمس التي تنير كل اللحظات.. أحس بشيء من الرضا.. بشيء من الامتنان للحياة التي وهبته تلك المرأة العصامية أمًّا والمرأة الصابرة زوجة ..

الأم: محمود .. لا، توقفوا .. أنتم تقعون في الخطأ .. اعترضوا جميعًا ... لا ليس الآن ... تــوقفوا .

رأت المرأتان الدمعة التي نزلت من عينه ساعة تغطية وجهه بالقماش الأسود.. كان البكاء قد خيم على كل شيء وعلى كرسي الإسعاف.. انتشرت دموعها.. تلك التي تستعدُّ لاستقبال طفلها...

تندثر الدموع ... تتبعثر على جبال الحياة .. وتتكدس الأفكار .. كل منا يحوي فكرة يخشى أن يقف ويعترض .. ويعلو اسمه في الأثير .. قبل سحب حبل المقصلة بثوانٍ .. وكأنه الشريط البطيء .. توقف طفل وصاح .. لا تقتله.. توقفً .. أنا اعترض.. هذا ظلم .. ، لكن أمه أغلقت فاه .. ربما سحبته وهربت به .. نزل الحبل .. علت صرخات بانة في الأثير .. محموووود .. لا ... لا زوجته أغمى عليها عقب مقاومتها.. رافضة الذهاب إلى المستشفى .. كانت سرعة سيارة الإسعاف خيالية .. والأم لم تعد تتحمل .. هوت في الأرض ... ضاربة يديها ... كانت الصدمة تعمُّ المكان .. وقف الرجال الملثمون على المنصة محذرين أن من يحذو حذوه سيلقى المصير نفسه.

بين الموت والحياة .. ذات اللحظات التي مات بها الأب انبثق بها الابن !

خرج الطفل .. وكل مَنْ في الغرفة موقن أنه أراد الخروج بقوة وكأنه يصارع للخروج.:. توقع الجميع جوًّا هادئًا.. لذا ازداد هدوؤهم .. إلا أن الطفل خرج بصراخ .. بل هي أشبه بكلمات .. بدؤوا بتمييزها .. لا .. أنا أعترض.

من الجيد أن الطبيب لم يلقِ بالطفل في الهواء .. لربما لأنه نفس الطبيب الذي ساعد بخروج والده إلى الحياة .. أنا أعترض.. أعترض!

بانة التي وقفت دون أن تقف أمام الزجاج، ووالدا كينا وغيّاث كلهم ينظرون إلى الطفل الجديد .. محمود الجديد ... في هذه الأثناء..

عرضت الشاشة التي في المشفى مشهد إعدام محمود الزغيب، ثم نقلت المشهد إلى أنحاء الدولة .. مبينة مسيرات الاعتراض ... ما قولك الآن؟! أنا أعترض.

خلد التاريخ ذاته .. عقد قران كينا ... وإعدام زوجها وحبيبها.. وولادة طفلها .. طفلها هذا هو حلقة وصل الماضي بالحاضر .. الحلقة الذهبية للسلسلة .. انهمرت دموع أحرقت خد الزغيب الوليد .. صادرة عن حرارة الحب .. من أم ثكلت وحيدها .. من امرأة ثكلت عشيقها .. من طفل ثكل والده .. زادت مبيعات الكتاب .. حتى أنه أصبح عالميًا .. وتم ترجمته لعدة لغات تكريمًا للكاتب الذي دافع عن فكرته حتى النهاية .. عمّ اللا قبول أنحاء البلد حتى البلدان المجاورة .. وكثيرون كسروا خوفهم .. من الكلام .. ناطقين بالاعتراض .. موضحين أفكارهم!* إيجابًا وسلبًا .. لا للخوف من وجهات النظر

لا للخجل من المشاعر !

***

بعد مرور السنوات .. وحين بلغ محمود الخمس سنوات .. وفي أثناء عبثه في غرفة والده التي بقيت مقفلة على مدى سنوات طويلة.. إلا أنه كان يشعر بالمرأتين تتناوبان البكاء فوق الوسادة ذاتها.. الوسادة التي حملت ريحه .. فيدرك أن الحب الحقيقي متأصل في

البشر.. وأن ألم الفقدان مرير .. حين وجد تلك الورقة التي خط عليها اسمه.. أجل إنه محمود.. ركض بالورقة إلى أمه.. علها تقرؤها ..

إلـــــى مـــحمود..

بُني العزيز .. أدرك أنك ستحمل اسمي .. فالتهديدات المتتالية ومحاولات الاغتيال لا تبشر بخير.. لكني لا أستطيع ترك القلم .. دون أن أعترض .. ستجد الكثير من الأسئلة في هذا العالم .. اقرأ كثيرًا .. وتعلم لغة العيون فهي لغة الحب .. آمن؛ فالإيمان بالخالق موضوع كبير .. تأمل في السماء في الصغر اللا متناهي لكونك في هذا العالم .. متُّ وأنا لا أعرف شيئًا .. فاعرف أنك لا تعرف .. واسعَ جاهدًا لتبديد جهلك، وأيقن أنك مهما تعرف .. فلن تدرك ما تريده من معرفة !

ولدي العزيز.. اجهر بعدم القبول.. فالثورة ليست ثورة السلاح.. بل ثورة الفكر ... والآن ما قولك؟

قطرات الدموع التي غمرت الورقة الهشة كأنها مطر غزير أيقن من خلالها محمود الصغير مدى الشوق، مدى المعاني التي حملتها .. وبكت الجدة التي كانت تهلوس باسم صغيرها ... بكاءً مريرًا ... فبدد محمود صوت البكاء ببراءة طفولته: أنا أحـــبك جدًّا يا أبي .. حتى لو لم أرَك لكني أشعر بشيء يربطنا معًا .. أمي وجدتي تحبانك أيضًا .. أبي .. أعدك أني سأعترض .. سأعترض لأنهم سرقوك مني بغتة .. قبل أن أخبرك مدى حبي.

غمرته الأم وبيدها الرسالة .. فامتزجت دموعها ببراءته .. في حين استسلمت الجدة للنوم! كانت السماء صافية للغاية .. رغم اليوم الخريفي .. وقفت حمامة على الشباك .. همس محمود .. أمي .. أبي جاءنا من الجنة.

